
روايات مصرية للجيب
66
أسطورة الرجال الذين
لم يعودوا كذلك!
ما وراء الطبيعة
Looloo
www.dvd4arab.com
د. أحمد خالد توفيق

يصعب على المرء أن يقدم للمرة الأولى قصة للقراء لا يرسمها الفنان الأستاذ (إسماعيل دياب) ولا يشرف على تنسيقها الأستاذ (صبحى عبود) - عم (صبحى) كما ينادونه فى المؤسسة - خاصة أنها المرة الأولى منذ وضعت قدمى هنا، لكن هذه سنة الحياة ولسوف تستمر أردنا أم لم نرد .. ليرحم الله الفقيدين العزيزين ويرحمنا يوم يقول الرسام الجديد : يحز فى نفسى أن أرسم غلاف قصة لم يكتبها فلان أو فلان ...

المقدمة

مرحبًا بكم ..

أنغام (شوبرت) تنبعث من جهاز الكاسيت العملاق .. قدح من الشيكولاته الساخنة .. هدوء تام هذه الليلة كأن الصاخبين قد ماتوا كما تمنيت .. لا سعال .. لا صداع .. رائحة عطرة تنبعث من عود بخور رفيع تنقل لك أجواء المعابد البوذية فى (التبت) .. الرائحة تمتزج بأنغام (شوبرت) صانعة مزيجًا شميًا - سمعيًا فريدًا .. أى إنك قد تصغى لرائحة البخور أو تشم الموسيقا ..

جهاز الهاتف قد قرر أن يخرس .. ربما استجاب الله لدعائى وتلف هذا الجهاز الوقح أخيرًا .. أتذكر ذلك المفكر المصرى الكبير - د. (أحمد أمين) إن لم تخنى الذاكرة - الذى قالوا له إن هناك اختراعًا جديدًا اسمه الهاتف ، وهذا الاختراع يتيح لمن يريده أن يخاطبه إذا دق له الجرس .. فرفض تركيب هذا الاختراع رفضًا باتًا وقال : « إذن ما الفارق بينى وبين خادمى ؟ كلاهما يريده الناس فيقرعون له جرسًا !! »

هذه الكلمات تلخص رأيى فى هذا الاختراع برغم مرور ما يقرب من ثمانين عامًا عليها ..

يبدو أن البعوض كذلك قد قرر أن يخلد لراحة مستحقة .. مفاصلى بخير .. الجيران كفوا عن قتل بعضهم وإلقاء الجثث فوق سقفى ..

هدوء .. صمت .. موسيقا .. رائحة بخور .. سلام نفسى .. راحة بال .. صحة جسدية ..

الخلاصة أنها أمسية لا تطاق !

سأجن لو استمر الأمر على هذا الحال !

لهذا أقرر أن أفسد هذا كله وأحكى لكم قصة جديدة من قصصى ..

الرجال الذين لم يعودوا كذلك .. إنهم فى كل مكان للأسف فى هذه الأيام .. كل الرجال لم يعودوا كذلك ؛ إلى درجة أن الأسطورة الحقيقية هى أن تحكى عن رجال ظلوا كذلك ..

لكن ليس المجاز ما أعنيه .. أنا أتحدث حرفيًا عن رجال لم يعودوا كذلك ..

ربما يبدو الأمر غامضًا .. لكنك تعرف أننى سأفسر كل شىء .. بعد بضع صفحات يصير الأمر واضحًا .. ربما مملاً كذلك ..

سأحكى القصة لكن أرجو أن تخبرونى إذا ما كنت قد حكيتها من قبل .. لقد تكلمت كثيرًا جدًا حتى لم أعد أذكر إن كنت قلت ما قلته أم لا ..

القصة تدور حول شىء كهذا ..

مقدمة

عزيزى رفعت :

سررت كثيرًا لتلقى ذلك الخطاب منك .. من الطريف أن يتلقى المرء خطابات ممن هم مثلك من حين لآخر .. دعك من السبب الأهم الذى يجعلنى أرتاح لمراسلتك ، وهو أنك اتبعت تعليماتى حرفيًا فلم تذكر اسمى .. إنك تعرف أن الناس تقع فى هذا الخطأ من حين لآخر .. ويكون رد فعلى على هذا حاسمًا .. أنا لا أريد أحدا ولسوف يسعدنى كثيرًا التخلص من وجه جديد ..

من ناحية أخرى أنت استعملت المزيج الذى وصفته لك بدقة .. ومن الواضح أن ضغط دمك مرتفع فعلاً .. كثافة الدم فى الحبر الذى كتبت به توحى لى بذلك ..

الأمور تسير على ما يرام .. أعرف أنك قادم إلى الولايات المتحدة فى الفترة القادمة .. بالذات إلى (فينكس Phoenix) أعرف أنك ستمضى هناك يومًا أو اثنين ثم تتجه إلى (تيمب Tempe) .. لا بد أنك تقصد جامعة (أريزونا) هناك .. فى الحقيقة لم أسمع أن هناك كلية طب ، لكنك أدرى بهذا .. تعرف

الحقيقة لم أسمع أن هناك كلية طب ، لكنك أدرى بهذا .. تعرف
أن عليك أن ترتحل بعدها إلى (دلوير)(★) قرب (مورينسى Morenci) .. هذا موعد بلا أعذار .. موعد يشبه الموت وعليك أن تلبيه أردت أم لم ترد ..

يبدو لى جدولك الزمنى حافلاً ومزدحمًا أكثر من اللازم ، لكنه كذلك شائق .. ألا ترى هذا معى ؟

على كل حال يجب أن نتفق على شىء مهم .. أنا لن أتصل بك قبل اللقاء وعليك ألا تحاول تحت أية ظروف الاتصال بى بأية وسيلة عدا الخطابات .. لعل كلامى واضح ولا يمكن فهمه بطريقة أخرى ..

أرجو أن أسمع منك أخبارًا أفضل فى الفترة القادمة ، لكن خذ الحذر ..

أعرف أن هناك أمورًا مقلقة فى (الأريزونا) هذه الأيام .. ويبدو أنك محق بصدد هذا المغناطيس الذى يجذبك جذبًا نحو المشاكل ..

(★) اسم البلدة وهمى .. لكن (مورينسى) حقيقية ..

سوف أحاول مساعدتك ، لكن لا أعد بالكثير .. ما دمت قادمًا إلى (أريزونا) موطن رعاة البقر فلأقُل لك ما يقوله هؤلاء فى الأفلام : على الرجل أن يقوم بما يجب على الرجل أن يقوم به !

شكرًا سلفًا ..

بإخلاص :

أنت تعرف من ...

★ ★ ★

عزيزتى :

لن أنسى التعليمات .. لا أسماء .. طريقة كتابة الخطاب هى هى ..

من الممتع أن يعرف المرء من هى مثلك .. وهو حب مستحيل على كل حال .. كل حب فى حياتى كان مستحيلا بشكل أو بآخر .. حتى الإنجليزية التى أحبها وتحبنى منذ عدة عقود لا أستطيع الارتباط بها لأنها تصر على أن (الابتعاد يحفظ لكل منا صورته الجميلة عن الآخر) .. وهو منطق لا بأس به لكنى أريدها فما الحل ؟

هى مصممة على أن أظل أشيخ وأهرم وأتحول إلى مومياء حية قبل أن أتحول إلى مومياء ميتة .. كل هذا حتى لا تفسد صورتى الجميلة عندها ! أى منطق هذا ؟!!

نعم . معلوماتك دقيقة وهى أدق من معلوماتى كما هو واضح ! لم أكن أعرف أننى ذاهب إلى (مورينسى) لكن عرفت هذه الحقيقة مؤخرًا .. حتى تساءلت (هل أنا ذاهب إلى مورينسى لأنك تريدين هذا ، أم إنك تريديننى لأننى ذاهب إلى مورينسى ؟) ..

(على الرجل أن يقوم بما يجب على الرجل أن يقوم به) .. من قائل هذه العبارة ؟ (جون واين) بطل أفلام رعاة البقر ورمز أمريكا ؟ تبدو كأنها خرجت من لسانه .. إنها بسيطة جدًا لكنها بليغة .. كلنا ينسى ذلك ..

حسن .. أنت تعرفين حياتى .. الكثير من الوحدة .. الكثير من الخوف .. الكثير من الذكريات الأليمة .. الكثير من الإحباطات .. الحياة بين كتب الظواهر الغريبة أو بين الكتب الطبية .. أمراض الكهولة أجمعها فى حماس كأنها طوابع .. أعد وجباتى لنفسى وعلى الأرجح أصاب بالاشمئزاز وألقيها فى القمامة ..

لست سعيدًا على الإطلاق ، لكنى لست تعسًا .. لم أوت جهازًا عصبيًا يسمح لى بتحمل الصخب ولا البشر .. لا أتحمل أن يزورنى أستاذ (عبد الباسط) مع زوجته البدينة وأطفاله الستة .. هو يخلع حذاءه ليتسلى بمداعبة أصابع قدميه باعتزاز كأنه اكتشف فجأة أن له قدمًا ، ويوضح لى كم أنه مظلوم ولا ينال ما يستحق فى العمل ، وكيف أن درجته المالية تسمح له بأن يكون وكيل وزارة .. لكن هذا هو

حالنا دومًا .. من يحرق نفسه فى العمل لا يظفر بشىء ومن ينافق يظفر بكل شىء .. ثم يحمر وجهه ويبدأ فى قذف اللعاب من فمه فى وجهى .. والأطفال يتسلون بتمزيق كل كتاب أحبه ، وكل مزهرية أعتز بها ، إلى أن يبول أصغرهم على السجادة لتحمله أمه إلى حوض المطبخ ـ دائمًا المطبخ ـ لتغسل مؤخرته فوق أطباقى .. ثم تعود لتثرثر مع زوجتى عن الطريقة المثلى للاحتفاظ بمذاق الصلصة .. لا بد من قطرة زيت على السطح .. هذا واضح ..

وفى النهاية يعتذر لى أستاذ (عبد الباسط) عن البقاء لساعة متأخرة .. الحقيقة أنه يجب أن يعتذر عن تواجده مبكرًا فى دارى .. وينصرف تاركًا إياى ألملم جراحى كأننى فرنسا تحاول لم جراحها بعد الغزو النازى ..

حقًا لا أطيق البشر .. للدقة أنا وهم قطبان .. سالب وسالب .. شمالى وشمالى ..

شكرًا على اهتمامك .. لكن أتمنى ألا تبخلى على بخطاب من آن لآخر .. صحيح أن ساعدى ما زال يؤلمنى من

تجربة الكتابة المتكررة .. هذا الإكسير لا يجعل الدم يتجمد أبدًا .. لكنى بحاجة لك لأن كلماتك هى الحكمة مقطرة ..

أتوقع منك ما هو أكثر من التلميحات .. أتوقع تفصيلات أكثر ..

بإخلاص

رفعت إسماعيل

★ ★ ★

عزيزى رفعت :

فى الحقيقة ليس من حقى أن أتكلم أكثر من اللازم .. أنت تعرف جيدًا أنه ليس من حقنا تقديم معلومات سخية ، لكنى أرجح أنت ستموت وحيدًا .. لن تتزوج أبدًا .. أعتقد أنك قبلت هذه الحقيقة وهى ليست بالمرعبة إذا ما فكرت فى الأمر بروية .. من يملكون نفاد صبرك وعصبيتك وتاريخك المخيف لا يحق لهم أن يعذبوا شخصًا آخر ..

دعك من أن عدم الزواج قد يمنحك تفردًا خاصًا كالرهبان وفرسان (النينجا) .. قالوا قديمًا إن هؤلاء الفرسان يفقدون أى تميز لهم متى تزوجوا . وأعتقد إن هذا ينطبق عليك ..

نأتى إلى الموضوع التالى .. هذه النصائح قد تكون مفيدة لك هناك وقد لا تكون لكن أرجو أن تتذكرها :

ـ لا تثق فى أية أصوات غريبة تسمعها ليلاً .. لا تفترض أنها طبيعية ..

ـ مقولة (يحدث للآخرين فقط) انتهى عهدها .. ربما كان من الأفضل أن تتبنى مقولة (يحدث لى دون سواى) ..

- لا تثق فى الصداقات القديمة أكثر من اللازم .

- لا تقع فى حب جديد ..

- الرائحة الكريهة موجودة هناك لسبب مهم .. لا تنس هذا ..

- لا تثق فى زوجة يموت زوجها ليلة الزفاف ..

- عداواتك القديمة قد تطفو على السطح .. تذكر أين أنت ومن أنت ..

هذا كل ما بوسعى أن أقدمه لك ..

أتمنى لك حظًا سعيدًا .. لكنى أؤمن بالحتمية .. أنت بطل أسطورة إغريقية سمع مصيره كاملاً من العرافين ومن الجوقة ، لكنه ماض إلى نهايته بعناد وتحد .. ولو كان النصح يجدى مع أمثالك لما حدثت أول مغامرة لك ..

شكرًا سلفًا ..

بإخلاص :

أنت تعرف من ...

★ ★ ★

عزيزتى :

طبعًا هذه الكلمات تغرينى فعلاً بالتأجيل ، لكن العجلة قد دارت .. تذاكر حجزت ومخططات طبعت ومراسلات تمت .. ربما لو أخبرتنى قبل هذا بعدة أشهر .. ثم إنك بانتظارى فى النهاية ..

على كل حال أعدك أن أكون حذرًا وألا أتدخل فى شىء لا يخصنى .. سأكون ولدًا طيبًا .. سوف أكتب لك ثانية ، لكن يجب أن أصارحك بأن هذا الورق المدبوغ لا يناسبنى .. أحتاج إلى ارتداء قفاز عند الكتابة لأنى أكره ملمسه .. ثم رائحة الحرق عند إرساله ! الخطاب الوحيد الذى يجب أن يُحرق كى يصل لصاحبه ! دعك من أن ذراعى يؤلمنى كثيرًا ..

أما عن خطاباتك فتصلنى بالطريقة المعتادة .. وجدت خطابك الأخير تحت الوسادة .. أعتقد أن هذه الطريقة ستكون هى ميثاقنا الدائم ..

فقط أرجو أن تتذكرى هذا العجوز الأصلع الذى كتب عليه أن يواجه الكوارث حيثما ذهب ..

إن السفر قد تحدد بعد غد .. رحلة طويلة مرهقة هـى .. دعك من مقتى الشديد للولايات المتحدة التى لم أعتبرها أرض الأحلام قط .. لكنها مهمة فعلاً .. يمكن للمرء أن يكرهها لكن من المستحيل أن يتجاهلها ..

شكرًا على كل شىء ..

بإخلاص:

رفعت إسماعيل

الجزء الأول

العالم

« بعض الذباب يفضل أن يبيض على جثث فى أماكن مغلقة .. لو وجدنا جثة فى العراء وعليها بيض هذا الذباب فإن هذا دليل لا يدحض على أن الجثة نقلت للخارج .. والعكس صحيح .. هناك من يقتل رجلاً فى الغابة ثم ينقل الجثة إلى بيت مغلق .. هذه أشياء لا تخدع عالم الحشرات العدلى .. »

★ ★ ★

-1-

والآن أقدم لكم الدكتور (جوزيف شوارتز) ..

من بين هؤلاء الواقفين فى مسرح الجريمة ، يمكن القول أنت لن تبحث كثيرًا عن الرجل .. قامة فارعة .. وسيم كممثلى السينما .. قاطع قوى الشخصية . باختصار هو ذلك الرجل الذى يحتبس الكلام فى أى مجلس لدى دخوله ، وتتوقف النساء عن التنفس للحظة .. إنه يختلف فى كل شىء عن صورة العالم فى أذهاننا .. هذا عالم وسيم منظم أنيق ، وهو ما يبدو نوعًا من الخيال العلمى لكنه حقيقى ..

رجل لا يمكن أن تقتحمه العين .. هناك إذ يقف وسط رجال الشرطة ينظر إلى جثة الفتى الراقدة على الأسفلت المبتل ..

إن المطر ينهمر بشكل خفيف فى هذه الأمسية ، وهذا يضفى لمسة درامية لا بأس بها على المشهد .. هناك رجلا شرطة من ذوى الكروش .. أكبرهما فى حجم البطن هو المأمور ذاته ، وهذا يشبه تقاليد القبائل الإفريقية التى تنتخب لزعامتها صاحب الكرش الأكبر ..

والآن دعنى أقدم لك الجثة بكل فخر ..

هذا الفتى هو (جيمى شاريتون) .. وهو شاب أمريكى عادى جدًا لا يميزه شىء خاص .. نحيل أخرق .. لم تملأ رأسه قط إلا فكرة (المرح مع الشباب) .. طالب فى المدرسة الثانوية ولا يذكر أحد أنه عاداه من قبل ، فلماذا يقرر أحد أن يقتله الآن بالذات ؟

يقف المأمور (روى بيكر) وهو يدس أصبعين فى حزام سراويله الجينز ، وقد ميل القبعة على عينيه فى (ألاطة) .. والكرش العملاق يتدلى أمامه مبينًا بوضوح أنه رجل فظ لا يخجل أولاً .. ثانيًا هو يريد التظاهر بأنه محترف .. لهذا رسم على وجهه ابتسامة واثقة بينما تدلى السيجار الرفيع من جانب فيه فى استهتار ..

ينظر له د. (شوارتز) نظرةً جانبية عابرة ..

الفظاظة .. عدوه اللدود .. السوقية . الابتذال ..

كان يرى دومًا صور قتلى حروب المافيا فى المجلات القديمة .. جثة غارقة فى الدماء السوداء على الأرض (لأن الصور بالأبيض والأسود أو لعله الأصفر والبنى)

وكان يتساءل دومًا عن رجال الشرطة الواقفين فى نوع من الفخر ، وقد وضعوا أيديهم فى خصورهم وهم يضحكون فى اعتزاز بالنفس كأن هذه ثمرة إنتاجهم .. كان يرى فى هذا مزيجًا من الفظاظة والتفاخر الطفولى : نحن لا نخاف .. نحن شجعان حقًا .. هذا هو عملنا اليومى أيها السذج الحمقى ..

فى (فينكس) كان بطبعه يمقت رجال الشرطة ، لكن عمله كان يحتم أن يختلط بهم كثيرًا جدًا .. وكان الطرفان من النضج بحيث فهما العلاقة جيدًا .. هم يكرهونه باعتباره العالم المتحذلق المتعالى ، وهو يمقتهم باعتبارهم الدببة البدينة الفظة ..

بما أننا فى بلدة صغيرة ، لم يكن هناك ذلك الشريط الأصفر المعتاد ليمنع المارة من الدنو .. ولا ذلك الخط الأبيض الشبحى حول الجثة .. هذه أشياء يقوم بها رجال المدن الكبرى الأثرياء المدللون .. إنها تبدو جميلة فى التليفزيون ..

والتفت المأمور إلى (شوارتز) وقال له بشىء من الاشمئزاز :

ـ « هلم .. عملك يا (دوك) .. »

بلهجة من يقول : سنرى هذا السيرك ..

أخرج (شوارتز) محتويات حقيبته ، ثم ثبت العوينات على أنفه واقترب أكثر من المشهد .. طبيعة عمله جعلته يرى الكثير من الجثث .. لكنه لم يحب كثيرًا هذا الجزء ..

دنا أكثر وركع على ركبتيه جوار الفتى ..

هنا تذكر شيئًا مضحكًا .. حتى هذه اللحظة لم يعرف كيف مات .. لا توجد علامات ظاهرة من أى نوع ..

رفع عينًا متسائلة وسأل المأمور :

ـ « كيف مات ؟ »

ـ « هذا هو ما نحاول معرفته .. إن لى سبعة عشر عامًا كمأمور لكنى لم أر شيئًا كهذا قط .. لكنك تستطيع مساعدتنا على ما أظن .. أنت طبيب شرعى .. »

بكبرياء قال (شوارتز) :

ـ « خبير فى علم الحشرات العللى .. لا أمارس أى شىء يتعلق بالتشريح أو تحليل السموم .. أنا عالم حشرات أكثر منى طبيبًا .. »

قالها وقد بدأ يدرك المأزق الذى وقع فيه .. إن الرائحة كريهة فعلاً .. وشعر كأنها تتسلل إلى داخله لتلوثه .. هذا هراء لكنه يندرج تحت بند (تابو Taboo) الموت المعروف .. التعامل مع الموت كعدوى ..

أخرج المأمور من جيبه أنبوبًا صغيرًا .. ومد يده يمسح تحت أنف العالم .. يبدو أن هذا نوع من الدهانات نفاذة الرائحة المخصصة لعلاج الآلام المزمنة .. رائحة الأعشاب الأسيوية تغطى على كل شىء .. وقد شعر بامتنان لهذه اللمسة ..

جلس جوار الجثة وراح يتفحص الأنسجة ..

لا يوجد تمزق .. لكن هناك أجزاء تعرت من الجلد كأنه نوع من التحلل .. وتحت نسيج الجلد كانت تلك اليرقات .. واضحة جدًا .. لون الكريم المميز وأجساد ملساء بلا أقدام .. . من المعتاد بالنسبة للجثث السليمة أن تحتشد هذه حول فتحات الجسم .. أما فى الجثث التى امتلأت بالجراح فتفضل أن تكون فيها بطبيعة الحال ..

مد الجفت والتقط بعضها ودسه فى زجاجة صغيرة يحملها ..

سمع أحدهم يتأفف .. وهو شىء اعتاده على كل حال .. لن يفهم رجال الشرطة هؤلاء أبدًا .. جثث متعفنة .. لا بأس .. لكن أن توجد فيها ديدان فهذه كارثة بالنسبة لهم ..

قال المأمور :

- « ما رأيك ؟ »

غمغم (شوارتز) وهو يعاود فحص الجثة :

- « ذبابة الفرس Blow fly .. رتبة ثنائية الأجنحة .. إنها تلك الذبابة الزرقاء اللامعة التى تحيل حياتك جحيمًا .. يرقاتها تظهر دومًا فى الأنسجة المتعفنة .. »

- « وهل هذه أنسجة متعفنة ؟ »

نظر إلى المأمور فى غباء .. هذا الرجل يمزح أو هو غبى جدًا ..

قال فى برود :

- « لو كان أنفك لم يدرك هذه الحقيقة فأنت فى مشكلة .. »

فى صبر قال المأمور :

ـ « أكرر لك .. من المستحيل أن تكون هذه جثة متعفنة .. أمس لم تكن هناك أية جثث هنا .. دعك من أن لدينا شهودًا يمكن أن يؤكدوا أن الفتى كان حيًا .. »

ـ « الجثث تنقل من مكان لآخر .. »

ـ « كل الأدلة التى لدينا تقول إنه قتل هنا .. فى هذه البقعة بالذات .. وذبابتك هذه لن تكون أدق من معلوماتى .. لاحظ أن لى سبعة عشر عامًا كمأمور .. »

ـ « بدأت أشك فى هذا .. »

فى صبر ابتلع المأمور ريقه ، ثم ألقى فى فمه بقطعة من اللادن وقال :

ـ « ليكن .. اعتبر أنك تكلم حمارًا .. »

ـ « لن يرهقنى هذا ! »

ابتلع المأمور الإهانة مع اللادن وريقه ، وقال :

ـ « ليكن .. هل فى كتابك ما يفسر أن تهاجم هذه اليرقات جثة حديثة الوفاة ؟ »

ـ « مستحيل .. يسهل القول أن معلوماتكم خطأ .. لكن الحقائق العلمية لا تتبدل »

ثم راح يفتش عن مزيد من تلك الحشرات ..

فى النهاية وجد ضالته .. هذه المرة نحن نتحدث عن الخنافس ..

فتح زجاجة أخرى وراح يدس فيها بعضًا من تلك الحشرات .. وهو يتكلم بصوت عال :

ـ « هذه يرقات مختلفة تمامًا .. ثلاثة أزواج من الأرجل .. إنها يرقات خنافس .. »

نظر المأمور إلى الواقفين حوله وقال فى غيظ :

ـ « يبدو أنك تنعم بوقتك هنا .. إن الحماس العلمى يحركك بينما نحن نغلى .. »

ثم نزع قبعته ، وقال وهو يجفف عرقه :

ـ « لو كنت قد فرغت فإننى أدعوك إلى الشراب .. نريد الكلام عن هذا الموضوع بالتفصيل .. »

★ ★ ★

هناك حانات كثيرة فى (دلوير) .. يبدو أنها التسلية الوحيدة بالنسبة لعمال المناجم هؤلاء .. إنها حياة فظة قاسية لهذا بدا دكتور (شوارتز) أنيقًا مرفهًا لدرجة تثير الغيظ ..

طلب المأمور قدحين من الشراب ، ثم قال :

ـ « معذرة .. أنت رجل شريف تحب الصراحة ؛ لذا سأكلمك بصراحة .. بالنسبة لنا أنت نوع من الحواة .. ولو لم يرسلك رؤسائى فى (فينكس) للتحقيق لما فكرت فى سماع رأيك البتة .. »

قال (شوارتز) باسمًا :

ـ « هذا يريح جميع الأطراف .. بالنسبة لى أنتم رجال شرطة محدودو الخبرة والتجربة .. »

ـ « نحن متفاهمان .. القوة الغاشمة حينما تختلف مع العقل الراجح .. لكننا نحاول أن نصنع فريقًا .. »

جاءت الساقية العجفاء ـ التي ناداها المأمور بـ (مولى) ـ بالشراب .. قالت للمأمور شيئًا عن عدم قانونية احتساء الشرب فى وقت العمل ، فأطلق سبة بذيئة .. وأردف :

ـ « أنا القانون هنا .. هل فهمت ؟ »

نظرت الفتاة بنوع من الإجلال والرهبة إلى العالم الأنيق ثم انصرفت ..

التفت المأمور إلى العالم ، وقال :

ـ « هل لى أن أفهم شيئًا عن علم الحشرات العدلى هذا ؟ »

قال (شوارتز) وهو ينظر فى أرجاء الحانة :

ـ « علم الحشرات العدلى **Forensic Entomology** هو ذلك العلم الذى يحاول استخدام الحشرات فى التحقيقات الجنائية .. يمكن القول أن تطبيقه بدأ عمليًا فى (أسكتلندا) عام ١٩٣٥ على يد الطبيب البريطانى (ميرنس **Mearns**) الذى حدد الوقت الدقيق لمقتل امرأة وجدت جثتها المتحللة .. عامة نحن نعمل فى ثلاثة جوانب : الطب الشرعى ذاته .. والمدنى .. وتلوث المواد المحفوظة .. ناحية الطب الشرعى تتعلق بتعفن الجثث وأنواع الحشرات التى يمكن أن تجدها .. الناحية المدنية تتعلق بعضات الحشرات التى يمكن أن نحسبها إصابات .. أما عن تلوث المواد المحفوظة فنحن شهود خطرون بالنسبة لقضايا عدم صلاحية الأغذية ..

« بالنسبة للجمهور فإن أكثر أجزاء عملنا إثارة هو المتعلق بفحص الجثث .. نستخدم ما نعرفه عن تحولات النمو ووزن اليرقات .. وهذا يحتاج إلى دقة فى التعامل .. لو وضعنا اليرقات فى محلول حافظ لانكمشت وتغير لونها وأعطتنا مؤشرات خاطئة .. يجب أن نضعها فى ماء مغلى لمدة عشر ثوان قبل أن نغمسها فى الإيثانول .. وباستعمال حسابات معقدة تضع درجة حرارة الجو فى الاعتبار نستطيع أن نحدد بدقة وقت الوفاة .. هناك أخطاء نعرفها جيدًا .. مثلاً الجثة التى تحتوى الكوكايين فى أنسجتها تعجل من نمو اليرقات .. الجثة التى دهنت بالمراهم أو المشحمات تعطل نمو اليرقات .. بعض الذباب يفضل أن يبيض على جثث فى أماكن مغلقة .. لو وجدنا جثة فى العراء وعليها بيض هذا الذباب فإن هذا دليل لا يدحض على أن الجثة نقلت للخارج .. والعكس صحيح .. هناك من يقتل رجلاً فى الغابة ثم ينقل الجثة إلى بيت مغلق .. هذه أشياء لا تخدع عالم الحشرات العدلى .. تجميد الجثث يفتضح معنا بسهولة لأننا لا نجد بيضًا ولا يرقات .. من المريب ألا تجد حشرة فى جثة مضى على وفاتها أسبوع وتركت فى العراء .. هذا يعنى أنها كانت فى مكان مغلق

حتى تم اكتشافها .. الحشرات التى تمتص الدم تقدم لنا عينات ممتازة صالحة لتحليلها بتقنيات حمض DNA .. هكذا نعرف من امتصت دماءه بالضبط .. دعك من قدرتنا على تحليل السموم فى اليرقات لمعرفة أيها كان فى جسم الضحية .. إن اليرقات تمدنا بعينات السم فى وقت يكون فيه من المستحيل أن نجد بعضها فى أنسجة المريض .. »

قال المأمور فى خيبة أمل :

ـ « وهذا كل شىء ؟ »

ـ « ليس تمامًا .. إن كل حالة تحدٍّ فى حد ذاتها .. هناك آباء يعاقبون أطفالهم بلدغات الزنابير .. تضحك ! هناك قصص موثقة ودقيقة جدًا عن آباء فعلوا أشياء كهذه على سبيل الحماس التربوى .. نحن نثبت هذا لنعاقب هؤلاء الوحوش .. »

كان المأمور يبتسم لكنها ابتسامة ذات مذاق خاص جدًا .. هو بالذات كان يعرف أكثر ممن سواه أن هناك آباء ساديين مجانين .. والسبب بسيط .. أنه واحد منهم ..

يواصل العالم الكلام :

ـ « .. هناك مرضى فى دور المسنين والمصحات يُهملون حتى تتعفن جروحهم .. نحن نثبت هذا .. ماذا عن حوادث السيارات الناجمة عن دخول نحلة إلى السيارة ؟ نحلة معك وأنت تقود ! وهوب ! تنزلق السيارة لتتدحرج إلى جانب الطريق ولا يفهم أحد سبب الجنون الذى أصابك قبل وفاتك .. نحن قادرون على إثبات ذلك .. دعك من قدرتنا على تحديد المناطق التى مشت فيها السيارة .. إن الحشرات التى التصقت بالزجاج والرادياتور تدلنا على مسارات محددة .. بعض الحشرات تخبرنا بدقة بالمكان الذى زرع فيه الحشيش الذى تم ضبطه »

ونظر إلى المأمور فوجد هذه النظرة الغبية .. هذا الرجل لا يفهم شيئًا على الإطلاق .. إنه الخبز يُلقى للكلاب من جديد ..

قال المأمور بعد فترة صمت :

ـ « يبدو لى أنك محترف حقًا يا (دوك) . .. هل حصلت على شهادات فى هذا ؟ »

هز العالم رأسه بمعنى أن معه عشرات منها .. دعك من درجة دكتوراه فى علم الحشرات وأخرى فى الطب الشرعى ..

اسم (شوارتز) يتكرر بإلحاح كلما جاءت سيرة الحشرات الطبية هذه ..

أردف المأمور وقد جرع جرعة فصار له شارب أبيض رغوى :

ـ « أنت تعرف لماذا أرسلوك .. لدينا اليوم ثلاث حالات لعينة .. كلها امتلأت بالحشرات برغم أنه من المستحيل عمليًا أن تكون الجثث قد تعفنت .. »

قال العالم :

ـ « لدى فكرة عن الموضوع .. ولهذا تقرر أن أقيم فى البلدة عدة أيام .. يجب فهم سبب هذه الظاهرة .. »

من جديد حك المأمور شعره ، وقال مهمومًا :

ـ « هناك مشاكل كثيرة فى الجوار ؛ لذا أطلب منك أن تبقى عينيك مفتوحتين .. »

ـ « هل من تفاصيل ؟ »

ـ « لا .. لن أقول شيئًا .. فقط كن حذرًا من الغرباء .. »

هنا تعالى من منضدة قريبة صوت يصرخ :

- « ولكنى أكرر لك أن هذا الشراب ساخن ! »

ودوى صوت الساقية العجفاء يحتج ..

- « أنا جلبته لك منذ نصف ساعة .. ليس هذا ذنبى ! »

هنا أعاد المأمور قبعته لرأسه ونظر لمصدر الجلبة ..

كان هذا رجلاً أشقر متين البنيان ، يبدو كبطل من أبطال أفلام الغرب .. لكنه كان متعكر المزاج عصبيًا .. واضح أنه صادق ومن طراز صريح جدًا .. كان المأمور يفهم الرجال بنظرة واحدة وقد أدرك على الفور أنه أمام رجل يمكن أن ترتاح إليه لكنه صمم على أداء دوره المزعج كاملا .. إن الساقية تنظر له مستنجدة ..

اتجه إلى المنضدة وهو يهز كرشه العملاق فى ثقة . هذه أمور يفهمها جيدًا ويستمتع بها . إنها بالتأكيد أفضل من الكلام عن اليرقات فى الجثث المتعفنة ..

- « هل من مشكلة يا سيد ؟ »

قال الرجل الأشقر :

- « أنت سمعت مشكلتى .. »

قال المأمور :

- « نحن نعيش حياة من التفاهم هنا ، ولا أحب الصراخ فى الحانات .. إن لى سبعة عشر عامًا كمأمور فى هذه البلدة اللعينة .. »

كان الرجل الجديد يفهم الموقف .. رجال الشرطة المحليون هؤلاء لن ينفذوا القانون أبدًا على أهالى بلدتهم .. الغريب مخطئ ومجرم دائمًا ..

قال المأمور وهو يستند إلى المنضدة :

- « هل معك أوراق ؟ نحن لا نرحب بالغرباء فى هذه البلدة خاصة هذه الأيام .. »

ذات العبارة تقال منذ أيام رعاة البقر حتى اليوم ويبدو أنهم لن يتخلوا عنها أبدًا .. لكن الغريب أخرج أوراقه وألقاها أمام المأمور على المنضدة ..

- « اسمك (هارى شيلدون) ، خبير حاسبات ، من (فلوريدا) ! وماذا أتى بك هنا ؟ »

قال الغريب فى فتور :

- « هذا شأنى .. إنه موعد مع صديق .. وهو آت خلال يومين .. »

ألقى المأمور الأوراق على المنضدة ، وقال :

- « ليكن .. حاول ألا تثير المتاعب ولسوف تجد أن البلدة مريحة .. حاول أن تحدث شغبًا ولسوف تجدنى خصمًا مزعجًا .. »

نظر له الرجل بامتعاض ..

هنا تدخل د. (شوارتز) فى الحديث غير مدعو .. وجه كلامه للرجل الأشقر :

- « أنت غريب مثلى .. لكن أين تقيم ؟ »

- « فى ذلك الموتيل الحقير .. فوق محطة البنزين .. »

- « مصادفة عجيبة .. أنا أقيم هناك كذلك .. »

قال المأمور وهو يعود لمقعده :

- « عند (سكروج) .. لا غرابة فى هذا .. هذا هو المكان الوحيد الصالح للإقامة فى بلدة عمال المناجم هذه ، وهو مخصص على كل حال لمن يمرون بسياراتهم فيضطرون لقضاء ليلة واحدة .. وهل تعرف سبب قدوم صديقك هذا ؟ »

قال الأشقر :

- « إنه ليس أمريكيًا .. إنه طبيب مصرى يزور جامعة (أريزونا) الآن .. إنه فى (تيمب) لكنه آت .. لا أعرف سبب قدومه إلى هذا الوكر ، لكننا اعتدنا على أن نلتقى كلما جاء إلى الولايات .. »

- « مصرى فى (دلوير) ؟ هذا عجيب .. إن الغرائب لن تنتهى فى هذا العالم .. لم أسمع قط أن هذه البلدة صارت مزارًا سياحيًا .. »

- « إذن أنت تسمع الآن .. »

عاد المأمور إلى المنضدة التى كان جالسًا إليها ، وأفرغ ما تبقى من شراب فى جوفه مرة واحدة ، ثم قال للعالم :

- « أنت وجدت رفيقًا .. ربما اثنين .. أريدك أن تفتح عينيك جيدًا .. هذه أيام شريرة .. أؤكد لك ذلك »

★ ★ ★

-2-

ـ « مأمورهم ثقيل الظل .. »

ـ « يحب أن يتظاهر بأنه قوى الشكيمة .. هذه عقدة مزمنة عند رجال الشرطة الريفيين »

ثم ابتسم العالم بخبث وأردف :

ـ « أنت تعرف أننا جميعًا كنا فى طفولتنا نود أن نصبح رجال شرطة لنحمل المسدس ونضع الشارة .. حسن .. لكننا نضجنا وبدأنا نرى العالم بشكل مختلف .. فقط المأمور رجل لم ينضج واحتفظ بانبهاره الطفولى القديم بالمسدس والشارة ! »

منذ البداية صار واضحًا أن خبير الكمبيوتر وعالم الحشرات قد تفاهما .. إنهما غريبان متقفان فى هذه البلدة الخشنة نوعًا .. والطيور على أشكالها تقع ..

وقد التقيا على مائدة الغداء فى ذلك الموتيل المتواضع الذى يطل على محطة البنزين .. فى الطابق السفلى حانة (كافتيريا صغيرة) .. كل مكان هنا فيه حانة .. وهناك متجر صغير يبيع مشروبات غازية وحفاضات وحلوى .. تلك

الأشياء التى لا بد أن يتذكر راكب السيارة أنها ليست معه أثناء رحلته الطويلة .. ثم تجد درجًا يقودك إلى ممر .. فى أول الممر مكتب استقبال ينام عليه شاب من أصل مكسيكى .. لا عمل له إلا أن ينظر لك فى كآبة ويناولك مفتاح غرفتك ..

الفتاة التى تبيع الحلوى بالمتجر هى نفسها خادمة الغرف والساقية هنا لو كان شىء كهذا موجودًا .. إنها حسناء نوعًا اسمها (باتريشيا) .. لها طريقة لا مبالية ملول ساحرة فى حد ذاتها .. إنها باردة جدًا تعطيك الانطباع بأنها قد تجز رقبتك بالمقص لو دفع لها أحدهم ربع دولار .. من الغريب أن لهذا طابعًا جذابًا فريدًا ..

صاحب الموتيل والمحطة نفسه عجوز متهالك بدين اسمه (جيفرى) .. لكنهم يطلقون عليه (سكروج) بسبب بخله .. إن اسم (سكروج) يتكرر فى الثقافة الغربية مقترنًا بالبخل من أيام (ديكنز **Dickens**) حتى أيام (ديزنى) ..

ـ « المأمور يحب التظاهر بشدة البأس .. إنها وساوس الجبروت التقليدية »

ـ « وموضوع السبعة عشر عامًا .. يحب التظاهر بأنه مخضرم كذلك »

هذا ما يقوله (شوارتز) وهو يدخن لفافة تبغ أخرى ، بعدما انتهى من شرح حقائق علم الحشرات العدلى لـ (هارى شلدون) الذى لم يفهم شيئًا هو الآخر .. لكنه فعلها برقى وذكاء .. هناك نوع من عدم الفهم الذكى ليس شعاره (أنا غبى ولن أفهم حرفًا) بل شعاره (لنترك هذه الأمور للمختصين) ..

ـ « وصاحبك هذا .. المصرى .. قلت لى ما عمله ؟ »

ـ « طبيب بشرى .. لا أذكر تخصصه الحقيقة .. أعتقد أنه يعمل فى تخصص أمراض الدم .. إنه رجل ذو حيثية علمية ، وصديق عزيز .. لكنه كذلك من الذين يؤمنون بعوالم ما وراء الطبيعة .. يبدو أنه رأى الكثير جدًا .. أنا بنفسى واجهت معه بعض المشاكل .. »

ـ « جميل .. لكن ماذا يفعل هنا ؟ »

ـ « لم يعط تفسيرات .. قال إنه مضطر للقدوم هنا .. على كل حال صداقتنا تسمح بذلك .. إننى أثق فيه »

قال (شوارتز) وهو يشعل لفافة تبغ أخرى :

ـ « على كل حال .. أعتقد أن إقامتنا هنا ستكون مملة .. لا غنى لأحدنا عن الآخر .. إن هذه البلدة تبدو معزلا جمعوا فيه كل الحمقى ومتصلبى الرأى .. ولو لم ألقك فلا بد أننى كنت سأفقد عقلى من السأم .. لكن مصادقة خبير كمبيوتر رأى العالم تختلف بالتأكيد عن مصادقة عامل مناجم لم ير العالم إلا من تحت الأرض .. »

ابتسم (هارى) لهذه المجاملة ..

لم يكون انطباعًا بعد عن البلدة ، لكنه قدر أنها كئيبة على الأرجح ..

★ ★ ★

هناك منجم نحاس كبير فى (سان مانويل) قرب (توكسون) .. لكن (ديلوير) ! من يهتم بـ (ديلوير) ؟ لولا أنها تقع قرب (مورينسى) وفيها أكبر مناجم النحاس فى ولاية أريزونا لما سمع أحد عنها شيئًا ..

مجرد بلدة صغيرة هى بين النهر المالح وحدود المكسيك .. إنها تقع على أطراف الولايات المتحدة فى تلك

المناطق الجبلية الوعرة الجنوبية .. تلك المناطق التى كانت شمال المكسيك يومًا فصارت جنوب الولايات المتحدة ؛ فالولايات المتحدة كانت دومًا مولعة بالتمدد .. وفى كل مرة كانت حرب تدور بينها وبين المكسيك تنتهى بأن تقضم قضمة أخرى من تلك الدولة الأضعف .. هكذا نجد أن الولايات المتحدة ضمت لها الأريزونا عام 1848.. وقد شهدت الولاية فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر محاولات انفصال جادة قام بها المواطنون الأصليون ، لكنها فشلت جميعًا طبعًا ..

على كل حال سوف تجد أن المكسيك انتقمت انتقامًا بسيطًا هو أن كل شىء هنا له طابع مكسيكى .. أعلى جالية فى الولاية هى الهسبانيون .. هذا بصرف النظر عن حقيقة أن الولاية تضم أعلى تجمع من الهنود الأصليين (النافاهو Navajo)(★) .. الأسماء الإسبانية فى كل صوب .. أكثر الديانات انتشارًا هى الرومانية الكاثوليكية وهذا شىء غريب فى الولايات المتحدة البروتستانتية فى أغلبها .. ولو رأيت الصحراء فى لحظة بعينها ورأيت صبار (الشولا Cholla) لحسبت أنك فى المكسيك .. بعض الوجوه تشعرك بأنك هناك .. باختصار : هذه الولاية بالذات تشعرك بأنها لا تنتمى إلى أمريكا بحال ..

(★) نعم .. الاسم ينطق هكذا .. (نافاهو) لا (نافاجو) .

برغم أن منجم النحاس فى هذه البلدة قد نفد تقريبًا ، فإنه ما زال سخيًا بإنتاجه .. لا يمكن فهم هذا التناقض إلا إذا عرفنا أن منجم النحاس فى (يوتاه Utah) اعتبر منتهيًا منذ قرن .. ثم بعد سنوات اكتشف أصحابه أن ما زال به ١٢ ألف طن من النحاس ! السبب هو أن النحاس فى المناجم المنسية يلتحم بالكبريت مكونًا كبريتات النحاس .. لكن هناك أنواعًا من البكتريا تهوى الكبريت ، وتنقض على كبريتات النحاس لتأخذ غذاءها وتحرر النحاس .. عملية فصل بيولوجية بارعة تقوم بها البكتريا لتعيد الحياة إلى المناجم التى حسبها البشر قد انتهت تمامًا .. كان البشر يتركون فى المنجم نحو ٢٠٪ من خاماته لأنه لا يمكن استخراجها ، فجاءت البكتريا لتعيد لهم هذه النسبة .. فى المكسيك جربوا البكتريا مع كومة نفايات مناجم لا قيمة لها ، فظفروا خلال شهر واحد بـ ٦٥٠ طنًا من النحاس ! فقط يضخ العمال فى المنجم الماء الغنى بالجراثيم ثم يقومون بشفطه بعد أربعة أيام ليجدوا النحاس وقد انفصل ..

على كل حال سأريحك اليوم ولن أتمادى أكثر .. لن أخصص أربع صفحات لإعطائك خلفية جغرافية تاريخية عن

المنطقة .. ربما فى سياق القصة نعرف ما هو أكثر عن (أريزونا) .. هذه الولاية المحظوظة .. محظوظة ! طبعًا .. إنها الولاية المختارة لتحدث فيها وقائع قصتنا الليلة ..

....

الآن تعال معى إلى الشارع المظلم لنسترق السمع إلى ما يقوله هؤلاء المراهقون ..

الشاب الذى يملأ النمش وجهه هو (بيلى) . .. يبدو لى وسيمًا له ملامح مريحة ، لكن ما أعرفه عن المجتمع الأمريكى هو أن هذا الفتى منبوذ اجتماعيًا .. نمش وعوينات وجسد هزيل .. هذا المسكين يعانى أقسى معاملة ممكنة ولا شك فى هذا ..

الفتى الآخر قوى البنية مقتحم .. فلا بد أنه يلقى حظًا أحسن فى هذا المجتمع العدوانى بطبعه .. اسم الفتى القوى (هارلسون) .. هناك فتى ثالث لا مذاق له أعتقد أن اسمه (جويل) .. هناك فتاة لا تروق لى، لكن من يهتم بآرائى فى هذه الحياة ؟! بالنسبة لهم هى نموذج صارخ للجمال الأمريكى ..

إنهم يقفون هنالك قرب محطة البنزين يتهامسون ..

يقول الفتى قوى البنية :

ـ « الأمر واضح .. أنا طلبت من (جيمى) ألا يلحق بهم .. لكنه فعل »

قال الفتى النحيل :

ـ « أنت وضعت الأمر فى صورة التحدى .. ولم يخلق بعد المراهق الذى يرفض تحديًا .. »

ـ « أنا لست مراهقًا .. »

ـ « هذه أهم علامات المراهقة .. الإصرار الغبى على أنت لست كذلك .. »

تقول الفتاة وهى تضع يديها فى خصرها :

ـ « دعكما من هذا الهراء .. ثلاث حالات لأشخاص ركلوا الصندوق (هذا تعبير عامى محلى يعنى الموت) .. يقولون إن الشيطان قد حل بـ (ديلوير) .. إنهم يتعفنون وهم أحياء .. نحن كنا مع (جيمى شاريتون) قبل هذا بيوم واحد .. من المستحيل أن يكون قد مات وتعفنت جثته بهذه السرعة .. »

ـ « يقولون إن هناك رجلاً مهمًا جاء من (فينكس) لهذا الغرض .. »

ـ « هل هو طارد أرواح شريرة ؟ »

ـ « لا .. يجمع حشرات وأشياء من هذا الهراء .. »

ـ « لا بد أن هذا مثير .. »

قالتها بطريقة ملول لا توحى على الإطلاق بأية إثارة فى الموضوع .. الحقيقة أن المراهقين فى أمريكا يمرون بحالة ملل مزمنة فلا يقدر أى شىء على تحريك مشاعرهم .. Bore .. هذه هى الكلمة السحرية .. كل شىء كذلك .. المدرسة .. الفيلم .. الحفل .. الأسرة .. حتى حبيبها إن لم يكن وقحًا بما يكفى تعتبره مملاً .. هذا جيل رأى كل شىء فى التليفزيون وجرب كل شىء .. فى النهاية صار من المستحيل أن تثير اهتمامه ..

قال الفتى النحيل (بيلى) :

ـ « كما قلت لكم .. لقد أراد أن يقترب ليرى .. لكنه احترق .. من الحكمة ألا نخبر أحدا على الإطلاق بهذا الموضوع .. إن الإغراء سيكون شديدًا .. »

قالت الفتاة فى عصبية :

ـ « هل تفترض أننا الوحيدون الذين يعرفون السر ؟ »

ـ « بالتأكيد .. »

وابتلع ريقه ونظر حوله .. الظلام الممتد إلى ما لا نهاية .. فقط بقعة الضوء المخيفة التي تمثل محطة البنزين .. لو لم تكن هنالك لبدا المشهد مطمئنًا أكثر ..

وأردف :

ـ « لا أحد يعلم السر سوانا .. هناك من يعرفه والضم لهم .. وهناك من يعرفه وهلك .. من مصلحتنا ألا نخبر أحدا أولاً .. ومن مصلحتنا أن نتمسك بعدم الاقتراب أكثر .. »

داعبت الفتاة شعرها الطويل المتهدل على خصرها وقالت :

ـ « إذن ! »

ـ « نعود لبيوتنا وننسى هذه اللعبة .. لقد تسلينا بعض الوقت لكن هناك لحظة ما .. »

تبادل الفتى قوى البنية نظرة مع الفتاة وشاعت بسمة خبيثة ساخرة بعض الشىء فى العيون .. لم يفت (بيلى)

أن يلاحظها .. هما لا يباليان بشىء من هذا الهراء .. سيتصرفان على مسئوليتهما لأنهما أشجع ولأنهما يعتبرانه جبانا كالدجاجة ، ولأنهما يبحثان عن المرح .. ولأنهما يشعران بالملل .. الفتى القوى الوسيم والحسناء معًا فى الليل بينما لا مكان للضعفاء المصابين بالنمش ..

لو لم تكن قد لاحظت بعد أن الفتى (بيلى) يهيم بالفتاة فأنت فى مشكلة .. اسمها (ساندرا) .. وهى تمثل له عذابًا مقيمًا لا ينتهى .. أحيانًا يتمنى لو ماتت لتعود حياته لهدوئها السابق . دعك من أنها لا ترضى أن تجعله يقنط .. إنها تبقيه دائمًا على مسافة دانية منها لتثير خيال العشاق المهمين الحقيقيين مثل (هارلسون) و(ستيف جيلمور) ..

كان قد رأى الكثير من أفلام الرعب فى التليفزيون وعرف أن هذين ـ (هارلسون) و(ساندرا) ـ مناسبان دائمًا لتبدأ أحداث الفيلم المرعبة بهما .. سوف يمزقهما المسخ تمزيقًا أثناء لقائهما فى الدغل .. لكن هل هناك مسخًا حقًا فى (مورينسى) ؟

الآن فقط يتمنى ذلك ..

★ ★ ★

لم يأت (جوزيف شوارتز) من الفضاء الخارجى .. وعلى الأرجح لم يخرج من باطن الأرض ..

كان عالمًا بارعًا .. لكنه زوج فاشل .. هذا نمط شائع أكثر من اللازم ، ولكنها الحقيقة .. لا يعرف السبب فى فشل زيجته .. هل فشلت لأنه كرس حياته كلها من أجل العمل أم هو كرس حياته للعمل لأن زيجته فاشلة ؟!

بهذا المنطق الأخير فهو مدين لزوجته لأنها استطاعت أن تصنع منه رجلاً مرموقًا .. الكلاب المسعورة قد تجعل منك بطلا فى العدو .. ويبدو أن هذا هو الحال معه .

إنه يفشل فيدرس بإصرار أكثر .. يفشل فينكب على العمل .. يفشل فيسهر بحثًا فى المراجع .. ولأنه منكب على العمل ولأنه ينقب فى المراجع تفشل زيجته أكثر ..

وفى النهاية يدرك أن علاقته بزوجته قد صارت متشابكة معقدة كأنما ألف حبل قد التف حولها .. يحتاج الأمر لعدة أعوام حتى ينجح فى فك كل هذه العقد ..

فى كل مرة يحاول أن يفك عقدة أو عقدتين وهى قد تحاول هذا ، لكنهما كانا يدركان أنهما قضيا بضع ساعات

فى عقدة واحدة .. وأن عشرات العقد تكونت فى هذه الأثناء .. لأن الاعتذار قد يسبب المزيد من سوء الفهم !!

وهكذا أدرك وأدركت أن هناك طريقة واحدة لفك العقد بشكل جذرى : القطع ..

الآن تم الطلاق .. وصار هذا الرجل الوسيم حرًا .. لكنه لا يرغب البتة فى أن يبدأ علاقة جديدة أو يتزوج ثانية .. لقد أضناه فهم هذا الكائن المعقد : الأنثى .. واعترف لنفسه بالعجز .. إن الذباب آكل اللحم والخنافس كائنات بشعة لكنها مفهومة واضحة ..

تأمل وجهه فى المرآة المعلقة فى الحمام ..

إنه وسيم فعلاً .. هو يدرك هذا .. وسيم وناجح .. لكنه فشل فى الشىء الذى استطاع أبوه أن ينجح فيه ..

تنهد وجلس إلى المنضدة الصغيرة وأعد المجهر وزجاجات العينات .. لقد غمس اليرقات فى ماء مغلى ، ثم وضعها فى الإيثانول .. هذا مهم كى لا تنتمش أو يتغير لونها كما قلنا .. هكذا أخرج العينات .. بحث عن مصدر للكهرباء فأولج القابس فيه ، ثم مد يده يلتقط اليرقة الأولى .. يرقة ذبابة الفرس ..

وضعها تحت المجهر وراح يتأملها ثم راح يدون قياساتها فى مفكرة صغيرة يحملها .. جواره على المنضدة ترمومتر ومقياس للرطوبة .. وبالاستعانة بجداول خاصة يمكنه قياس عمر هذه اليرقة ..

والآن تكلمى يا حلوتى .. قولى كل شىء عن أسرارك ..

كان يكلم اليرقة .. ويبدو أنها استجابت له بعد قليل ..

★ ★ ★

(جوتيريز) تشاجر مع زوجته ..

هذا يحدث كثيرًا على كل حال .. ماذا تنتظر من رجل فقير عاجز يمر بكل هذه المشاكل ؟ عندما تتشاجر فى العمل تطرد .. عندما تتشاجر فى الشارع تضرب .. عندما تتشاجر مع المأمور يسجنك .. هكذا لا يعود للمرء من موضع يتشاجر فيه إلا بيته .. مع زوجته الحبيبة ..

إنه يعيش فى وكر قذر .. أقذر مكان يمكن أن تتصوره .. وهذا فى حد ذاته كفيل بأن يجعل الحياة تشبه الجحيم .. لا .. إنها الجحيم بعينه ..

ليسَ فى الأمر جديد إذن .. إنها حياة الفقراء فى كل مكان وزمان ، لكن فى الدول الغربية تضاف لعنة الكحول إلى هذا كله .. وهكذا تضيف إلى النار المشتعلة أساسًا جرعة لا بأس بها من ذلك السائل اللعين سريع الالتهاب .. هكذا يفقد الرجال التحكم فى أنفسهم .. هكذا يضربون زوجاتهم وأطفالهم .. هكذا يصرخون ويركلون ويسبون ويلعنون ، ثم يغلبهم الإنهاك فيرتمون على الفراش حتى اليوم التالى ..

هل سمعت الشتائم ؟ من حسن حظك أنها بالإسبانية .. (جوتيريز) كما يوحى الاسم مكسيكى الأصل .. إن أسرته هنا منذ زمن سحيق .. يعمل فى المنجم .. ولا يكسب ما يكفى لإطعام كل هذه الأفواه .. لهذا ينفق كل ما يكسبه على الشراب لأن المعركة خاسرة على كل حال ..

لقد تشاجر مع (ماريا) وأوسعها ضربًا .. لها أسنان قوية يمكن أن تتلقى عدة ضربات فلا تتهشم .. لها شعر أسود جميل طويل يمكنه أن يجرها منه على سبيل التحية لرجال الكهف ..

كانت جميلة يومًا ما لكن الفقر والعذاب جعلاها أقرب إلى وحش آدمى يتلصص من بين الأحراش عليك .. هذا وجه مناسب جدًا لتوجيه اللكمات .. ربما يتمسك الطفل بسراويلك فى رعب .. عندها يمكنك أن توجه له ركلة ..

كل هذا الصراخ والسباب ثم تكتشف أن الدار خانقة لا تطاق ..

تخرج إلى العراء .. الظلام .. النجوم .. من بعيد تتشح الجبال بالسواد .. وهذا الجو الذى يطلقون عليه (الصيف الهندى) .. الجو الذى يعرفه الأمريكان جيدًا .. وهو كذلك فى عرفهم رمز لكل شىء يصير هادئًا قرب نهايته ..

ترتمى على الأرض ووجهك نحو السماء .. الزجاجة الفارغة تنزلق من بين أناملك .. تنظر للسماء وتضحك .. تغنى بصوت عال كى لا تسمع صوت المرأة والطفل الباكيين داخل الكوخ ..

أنت فقير يا (جوتيريز) لكنك يوم تموت لن تذهب للجنة فأنت رجل فظ سكير .. لو دخلت أنت الجنة فهى متاحة لأى شخص آخر .. كلا يا صاحبى .. إن الجحيم ينتظرك .. لا شك فى هذا ..

تغيب عن الوعى .. ثم تفتح عينيك لترى ذات الليل البهيم والنجوم وتلك الأضواء من بعيد ..

(بانج ! بانج !)

غريب صوت الطبول هذا ..

تسمعه فى كل ليلة منذ شهر لكنك لا تعرف كنهه .. من الغريب أنه يأتى من موضع ما فى وعيك .. كان هنالك دومًا كخلفية لليالى السابقة .. لكنك الآن تتساءل عن مصدره ..

تحلم من جديد . . .

العرق .. النفق .. المصعد يهبط بك ومعك رفاقك .. المنجم العجوز الذى لم يبق فيه الكثير .. الرطوبة والإضاءة المتراقصة من المصابيح المعلقة .. أنت تنزلق نحو الجحيم ..

ثم ...

هذا الشعور الغريب .. هذا الوهن ..

أنت لا تحلم .. بالفعل أنت تشعر بوهن .. لكنك لا تعرف السبب ..

تمد يدك تتحسس عنقك دون أن تفتح عينيك .. هذا الألم الحارق فى الرقبة .. أنت راقد على ظهرك خارج الكوخ مغمض العينين ، لكنك تشعر بما يحدث ..

شىء ما يلصق فمه بعنقك ويمتص الدماء !

(بانج ! بانج !)

هذا هراء .. لا يوجد شىء كهذا ..

لكنك تشعر به وتعرف أنه حقيقى .. تفتح عينيك لترى الليل البهيم والظلام والجبال من بعيد .. لكن شيئًا ما يحجب تلك الجبال ..

إنه الظل .. هناك من يجثم فوقك ويشرب الدم فى نهم ..

وأنت تزداد ضعفًا .. الضعف مع الدوار الذى سببه الكحول لك .. أضف لهذا شيئًا لا يمكن تفسيره .. كأن هذا الشىء قد حقنك بمادة مخدرة تجعلك عاجزًا عن الصراخ ..

السائل الأحمر يتسرب إلى ذلك الشىء ..

لا تستطيع الصراخ .. فقط يخطر لك خاطر مضحك هو أن دمك سوف يسمم هذا الأحمق بالتأكيد .. هذا مضحك ..

تصور أن ..

فيم كنت تفكر ؟ لقد نسيت ..

لم يعد هناك من واقع .. الحياة كلها قطعة من زجاج شفاف أسود ..

والظلام يتزايد ومعه يتلاشى إدراكك لكينونتك .. جربت هذا الشعور مرارًا لكنها المرة الأخيرة كما هو واضح ..

كما ..

هو ..

واضح ...

★ ★ ★

-3-

القس أيضًا يشعر بقلق ..

الأب (ميلروى) الذى سئم قلة المترددين على كنيسته بدأ يشعر بشىء مقلق هذه الأيام .. كان ينتمى لجماعة المعمدانيين ؛ لذا كان عليه أن يواجه حقيقة أن حظ كنيسته ضعيف فى هذه الولاية .. وقد اعتاد أن يقف فى شرفة بيته المطلة على الحديقة ويدندن لنفسه بصوت خفيض أغنية قديمة من أغانى البيتلز :

ـ « هؤلاء الناس الوحيدون .. من أين يأتون ؟ ولأين ينتمون ؟

« (إليانور رجبى) .. تجمع الأرز فى الكنيسة حيث كان الزفاف ..

تقف فى النافذة ..

تلبس وجهها الذى تحتفظ به فى جرة جوار الباب ..

الأب (ماكنزى) يكتب كلمات موعظة لن يسمعها أحد أبدًا .. فلا أحد يدنو منه ..

أنظر اليه وهو يرتق جواربه فى الليل حيث لا أحد هناك ..

(إليانور رجبى) ماتت فى الكنيسة ودفنت ومعها دفن اسمها ..

الأب (ماكنزى) ينفض الغبار عن يديه وهو يفارق قبرها ..

فلم يتم خلاص أحد ..

هؤلاء الناس الوحيدون .. من أين يأتون ؟ ولأين ينتمون ؟ »

كان يشعر بأنه الأب (ماكنزى) ذاته .. ولطالما جلس بالفعل يرتق جواربه فى الليل (حيث لا أحد هناك) ..

كان يحب مراقبة الطيور ؛ ولذا أعد لها أكثر من موضع للشرب فى حديقته .. ثم تعلم أن يتوارى وراء ستائر النافذة ويراقبها بالمنظار المقرب .. لعل هذه تسليته الوحيدة .. لكنه فى الفترة الأخيرة لاحظ أنها تقل بشكل مستمر .. دعك من المرة التى وجد فيها طائرًا ممزقًا فى حديقته بالذات ..

إنها القطط .. ربما ..

لكن هذا لم يمنعه من الدهشة ؛ لأن القطط لا تقص ضحاياها إلى نصفين كأنما تفعل هذا بمقص حاد ..

ثم بدأ يجد جثث القطط ذاتها ..

قطط ممزقة إلى نصفين فى فناء حديقته .. لا أحد يفعل هذا بكامل قواه العقلية .. لكن هناك احتمالا آخر .. إنه يعرف أساليب الشيطانيين Satanics .. جثث القطط كانت دومًا من الوصفات المفضلة لدى هؤلاء .. جثث القطط المعلقة المسلوخة ..

هل يعنى هذا أن هناك من يمارس شيئًا كهذا فى بلدته بالذات ؟! هذا مخيف ..

إن هذه الفكرة تشعره بالاختناق ..

لقد حمل أسئلته وشكوكه إلى المأمور .. لكن هذا الأخير لم يبد مندهشًا .. يبدو أنه تلقى بعض الشكاوى وبالنسبة له بدا القس متأخرًا جدًا وآخر من يعلم ..

سأله الأب (ميلروى) فى رعب :

- « هل تعتقد ما أعتقده ؟ »

قال المأمور بطريقته الفظة :

ـ « لا أعرف يقينًا ما تعتقده أنت .. لكننى أعرف شيئًا واحدا .. ثمة شىء قذر يجرى فى هذه البلدة .. هناك جثث .. جثث خالية من الدم أو بدأت فى التدويد .. هناك كلام عن شباب يمارسون أشياء غريبة .. إن لى سبعة عشر عامًا كمأمور لكنى لم أر شيئًا كهذا قط .. »

ثم وضع يده على كتف القس ، وقال فى مرح :

ـ « لو كنت تؤمن بالمواجهة النهائية مع الشيطان أيها الأب فلتهنأ بالا .. يبدو أنك ستعيش لتراها !! »

لكن الأب لم يشعر بأدنى رغبة فى الضحك لدى سماع هذه الكلمات .. ثمة شعور ما يراوده بالنهاية .. النهاية التى يشعر بها الجالسون فى السينما فيجمعون حاجياتهم ويرتفع دوى مقاعدهم .. النهاية التى تجعل التلاميذ يتململون فى نهاية الحصة قبل أن يسمعوا الجرس ..

القصة تدنو من نهايتها .. لكن أية قصة ؟

لا يستطيع أن يخمن ..

★ ★ ★

بالنسبة للأستاذ (رتشاردسون) كان هذا الجو الذى يطلقون عليه (الصيف الهندى) هو أجمل ما مر به فى حياته ..

(الصيف الهندى) .. عندما تدنو الأمور من نهايتها تصير ألطف وأخف .. وهذا هو ما يعنونه بهذا المصطلح ..

إنه معلم البلدة .. وهو يؤمن بأن التدريس أهم مهنة فى العالم .. هذا صحيح ، لو كان يتعامل مع أرض أكثر خصوبة ولو قليلاً .. لكنه يتعامل مع أرض جدبة قاحلة هى تلك المجموعة من الصبية أبناء عمال المناجم .. لا يمكن أن تنبت بذرة فى هذا الوسط القاحل .. مستقبلهم غير محدد وعلى الأرجح لن يكون أحدهم شيئًا إلا ما كانه أبوه .. يصير عامل مناجم هو الآخر ..

فتية شديدو الفظاظة وقحون لا يهتمون بشىء .. ولم تكن علاقته بهم طيبة .. كان صغير الحجم واهن الصوت وبالتأكيد لم يكن أفضل من يستطيع السيطرة على هذه الوحوش .. لذا لجأ إلى الحيلة البسيطة المعروفة : جعل منهم أصدقاءه .. كان يمازحهم ويتبسط معهم .. واتخذ من أشرسهم وأقواهم صديقًا حميمًا له ..

هكذا على الأقل أمن شرهم ، لكنه كان عاجزًا عن تعليمهم أى شىء ..

منذ أسبوع أبدى امتعاضه لأن رائحة كريهة تدخل الفصل من النافذة ، فقال له أحدهم ضاحكًا :

ـ « هذه الرائحة خير من رائحتنا على الأقل ، ربما كان من الأفضل أن تعتاد هذه ! »

ولم يكن كلامه بعيدًا عن الحقيقة ..

كان هناك طلبة واعدون نوعًا مثل (بيلى) .. فتى ذكى من الطراز المغضوب عليه فى الصف .. (هارلسون) نموذج للبلطجى قوى البنية الذى يروق للفتيات ويمكنك الظفر بحمايته ؛ لذا لا تحاول أن تستفزه .. (جيمى شاريتون) كان خنزيرًا وغدًا .. أحيانًا يجيد الموت انتقاء ضحاياه .. أحيانًا يعمل الموت مثل العصفور الذى يلتقط حبوب القمح من بين الأعشاب .. وأحيانًا يلتقط الديدان والآفات الضارة .. على الأقل بالنسبة للفتى المذكور عامله الموت كآفة ضارة وتخلص منه ..

فى الصباح كان مقعد الفتى خاويًا ، ودخل أحدهم من الباب ليصيح :

ـ « لقد وجدوا جثة (جيمى شارتون) ليلة أمس .. لقد مات ! الشرطة كانت هناك ! »

كان أغلب الطلبة يعرف ما حدث .. بكت فتاتان .. لكن الأستاذ لم يكن قد سمع شيئًا عن هذا .. إن البلدة صغيرة لكنه كان أميل إلى العزلة .. ولم يكن يسهر حيث توجد الأخبار ..

ـ « مات ! كيف ؟ »

ـ « لم يعرفوا بعد .. لا توجد جروح فى جسده .. »

شعر برجفة تغمر جسده .. أمس فقط كان الفتى يجلس هنا ويمزح مزاحًا وقحًا .. كان ملء السمع والبصر .. كان موجودًا جدًا لو شئت الدقة .. فى كل مرة يتكرر فيها هذا الموقف نشعر بالرهبة كأنها المرة الأولى ..

وكان قد كون نظرية بسيطة عن سبب وفاة الفتى .. هناك مخدرات فى هذه البلدة .. وكل مراهق أمريكى قد جربها فى وقت ما .. الجرعات الزائدة تفسر كل شىء ..

حياة لا تطاق .. حرب مستمرة فى عالم من البلطجية والمدمنين ، وكل هذا بلا ثمن ما ..

لكن عندما يعود لداره كانت حياته تختلف كلية ويؤمن بأنه محظوظ ؛ لأن (كلاريسا) كانت هناك .. امرأته الرقيقة الحسناء التى تراه أهم رجل فى العالم ..

(كلاريسا) ذات الشعر الأسود والعينين الواسعتين والضحكة المشرقة والرائحة العطرة .. إنها تعمل فى المتجر الصغير الموجود فى الشارع الرئيس ، لكنها تعود للبيت قبله دائمًا ..

(كلاريسا) الحنون .. مشكلتها أنها تريد أن تكون أمًّا .. هذا النوع من النساء هو كتلة من الأمومة المجمدة التى تنتظر الفرصة لتسبغ حنانها على طفل .. وهو يرغب فى إرجاء الإنجاب بعض الوقت ، فهو فى الخامسة والثلاثين .. ما زال أمامه بعض الوقت ليستمتع بحياته قبل أن يفكر فى تعقيد حياته بطفل يعوى ليلاً .. لكنه يعرف حاجتها الملحة .. إنها أم .. حتى لو لم تنجب ستظل أمًّا .. حتى لو فقدت رحمها ستظل أمًّا ..

قالت له وهى تعد العشاء :

ـ « البلدة تمر بظروف غريبة .. (جيمى شاريتون) مات .. ثم عامل مناجم يدعى (جوتيريز) .. أسمع هذه الأخبار فى المتجر لأن الكل يثرثر .. »

ثم أضافت وهى تتخذ مكانها على المنضدة :

ـ هناك غريب حسن المظهر .. غريبان حسنا المظهر .. يبدو أن أحدهما عالم مهم من (فينكس) ..

قال فى امتعاض وهو ينقل البطاطس المهروسة لطبقه :

ـ نحن لا نحتاج إلى علماء .. نحتاج إلى رجال شرطة حقيقيين .. بدلا من هذا الخنزير البدين الذى يتظاهر بفهم كل شىء ..

ـ ليس رجلاً سيئًا لهذا الحد .. يبدو لى محترفًا ..

ـ نعم .. محترف فى التظاهر بالاحتراف .. لكن أكبر خبرة مرت به لا تزيد على مطاردة الصبية الذين هشموا زجاج المتجر بالحجارة ..

ثم فكر فى جشع ، وقال :

ـ سوف يكون من الممتع لو استمر وباء القتل هذا حتى أفرغ من باقى طلاب الصف .

ـ « ومن قال إنه قتل ؟ »

نظر لها وابتسم ..

- « هل تعتقدين أن كل هؤلاء ماتوا بالصدفة ؟! »

وقال لنفسه : من السهل أن يزل لسان القاتل أمام المحققين .. هذا الخطأ الشهير : أنا لم أقتل (جاك) أيها المفتش .. ومن قال لك إنه قتل ؟ إذن أنت القاتل ..

لو كانت تمتحنه فقد وقع فى الفخ ..

(بانج ! بانج !)

من أين يأتى صوت الطبول العجيب هذا ؟!

★ ★ ★

-4-

فى الليل عند الجسر القديم ..

يمكنك أن تتخيل المشهد بسهولة ، لكن عليك أن تضيف إليه كميات هائلة من الظلام والأضواء الخافتة .. أولاً هناك المنجم .. إنه من معالم البلدة كما نعرف .. المدخل الرئيس له الذى يقود إلى المصعد .. هناك النهر الجاف الذى تحول إلى أخدود عميق .. يبدو أنه كان يصب فى الماضى فى نهر (جيلا) الذى يصب بدوره فى نهر (كولورادو Colorado) ، وهناك الجسر الذى يصل بين ضفة ذلك النهر ومدخل المنجم ..

خلف المنجم يوجد عدد من القباب المظلمة التى تبدو كعمالقة نيام .. إنها أكواخ هنود (النافاهو) وأكثرها مهجور ..

هناك تلك المساحة الشاسعة التى تقع أمام المنجم .. وهى تذكرك بأجواء الغرب القديمة .. يسهل أن ترى عربة قديمة ورجالا يصفون الماء عبر الغرابيل بحثًا عن الذهب .. يسهل أن ترى الهنود الحمر ومعركة بالمسدسات ..

هذا مشهد يمكنك تخيله .. لكنك لن تراه بالتأكيد .. فى هذا الليل البهيم يمكنك فقط أن ترى أول الرجال وهو

يقترب .. إن الصبار فى كل مكان لهذا يسهل عليك فى البداية أن تخلط بين الرجل وأحد هذه النباتات .. صبار (الساجارو Saguaro) العملاق لا يصعب عليك أن تتخيله رجلاً يقف وذراعاه إلى جانبيه ..

هناك مشعل عملاق يتوهج حيث غرس فى الأرض وسط الساحة الخالية .. هو مصدر الظلال الغامضة التى أثارت هلعك ..

الرجل يقترب من المشعل ويقف ..

ومن بعيد يقترب الرجل الآخر .. المشكلة مع هذه الظلال أنك لا تتبين أى وجه من الوجوه .. فقط ترى القامات وتدرك أنها فارعة قوية ..

من بعيد يقترب رجال آخرون لكن فيهم شيئًا يحيرنى .. هل تراه ؟ رأس هذا الرجل لا تبدو متناسبة مع حجم جسده .. إنها كبيرة جدًا أو لعل رقصة الظلال هى ما يوحى لى بذلك ..

ثمة فتيات يقتربن .. دائرة تتكون حول المشعل المتراقص .. ثم دائرة أخرى تشترك معها فى المركز ..

إنهم يرفعون أيديهم إلى جوانب الأجساد .. إن أصابعهم تتلامس ..

لا بد أن عددهم لا يقل عن أربعين .. والمفزع فى الأمر أن كلمة واحدة لم يتم تبادلها منذ ربع ساعة .. هؤلاء قوم يعرفون جيدًا ما يفعلون وفعلوه مرارًا ..

بدا بعد قليل أن أحدا لن يأتى .. لذا ساد الصمت برهة .. فقط ظلت الأيدى متلامسة .. ثم فجأة ..

انفجر الجمع فى أغرب رقصة يمكن تصورها .. إنها تبدأ بطيئة ويصاحبها إيقاع خافت أقرب إلى (بانج ! بانج !) .. ليست طبلة بالضبط بل هى أقرب إلى صوت قرعات على علبة معدنية ..

الرءوس تتمايل .. نوع من (الأيوفوريا) يغمر الجميع .. ثم يتسارع الإيقاع ببطء ..

الآن تنفتح الدائرة الخارجية ببطء فتلحق بها الدائرة الداخلية .. ثم تنغلق الدائرة الداخلية ويبقى الفراغ بين الدائرتين واسعًا .. يسمح بأن تنفصل فتاة وتركض ركضًا بين الدائرتين ..

لو سمحت لنفسى بتقريب المشهد لقلت إنه يشبه لعبة (الديب السحراوى) التى كنا نلعبها فى المدرسة .. لا ينقصها

إلا أن تلقى الفتاة بمنديل وراء أحد الجالسين وتعود لموضعها قبل أن يلحق بها ..

لكن هذا لا يحدث لحسن الحظ وإلا بدا الأمر سخيفًا .. فقط هى تتم الدورة ثم تعود لمكانها وتخرج فتاة أخرى ..

★ ★ ★

وهناك عند فتحة المنجم المغلقة فى هذه الساعة يمكنك أن تتخذ موضعًا بانوراميًا ممتازًا يشبه موضع (نابليون) فى موقعة (أوسترليتز) .. يمكنك أن تراقب ما يحدث من عل وأنت نائم على بطنك تحاول ألا تتحرك أو ترفع رأسك فيراه أحدهم ..

- « هل ما زالت معك بعض الحلوى ؟ »

- « أخفض صوتك .. »

- « الطقس بارد .. أنا بحاجة إلى السكر .. »

- « هاك .. ولكن حاول ألا تقضم بصوت عال .. »

- « هل تعرفين أحدهم ؟ »

من الصعب فى بلدة يبلغ تعدادها أربعمائة شخص ألا تعرف الجميع .. فى مصر لا ننظر بجدية إلى تعداد سكان يقل عن ثلاثين ألفًا ، لكن المساحات شاسعة بالفعل فى الولايات المتحدة .. وهناك بلاد كاملة لا يتجاوز عدد سكانها أفراد دفعتك فى الكلية .

لكن (ساندرا) بالفعل لم تستطع تحديد أى اسم .. إنه الظلام .. إنها المسافة ..

عطر (ساندرا) يفعم رئتيه .. أربعون شخصًا فى بلدة تعدادها أربعمائة .. احتمال واحد فى العشرة أن يكون أحد هؤلاء الواقفين زميلها فى المدرسة .. ربما هم جميعًا .. لكنها لا تستطيع أن تحدد ..

كان (هارلسون) يرتجف من البرد فعلاً ..

قالت له وهى تمسك بيده :

- « يا لك من مسكين .. هلم أمسك يدى .. إنها دافئة »

ضايقه هذا كثيرًا .. المفترض أن يمنحها هو الدفء والاطمئنان لكن العكس ما حدث ..

كانا قد فعلا ما توقعه (بيلى) بالضبط بلا زيادة ولا نقصان .. عندما تفرق الباقون تسللا إلى ذات الموضع ليريا ذات السر الذى رأياه منذ أيام فى تلك الليلة .. عندما تعاهد الأصدقاء على الصمت ..

إن المشهد الرهيب قادم الآن ..

يعرفان هذا لأنهما رأياه فى تلك الليلة .. وهو سبب المشكلة ..

(جيمى) كان مندفعًا أحمق ، وقد قال إنه لم يخف لدى رؤية المشهد .. تحداه (هارلسون) علانية .. قال له إنه لن يجسر على أن يعود فى ليلة أخرى ليرى ذات الشىء ..

كانت هذه هى نقطة اللاعودة .. أن تتحدى مراهقًا معناه أنت تأمره بالشىء الذى تتحداه به .. وقد أعلن (جيمى) فى ثقة أنه سيعود ليرى أفضل ..

كانت المناقشات الحامية قد دارت بينهم حول حقيقة هذا المشهد ..

ـ « كان (مانسون Manson) زعيم الهيبيز يصطحب أتباعه إلى واد مقفر .. حيث يسلبهم عقلهم بالمخدرات .. ويقنعهم بأنه المسيح .. »

ـ « نحن لم نر شخصًا يلتفون حوله .. »

ـ « لكننا ـ بالله عليك ـ ندرك يقينًا أن ما رأيناه كان طقوسًا دينية .. »

ـ « ولماذا ؟ »

ـ « لأن الناس لا يتصرفون بهذه الكيفية فى سبيل المرح .. هذا ليس حفلاً خلويًا لو فهمت ما أعنيه »

كانوا يعرفون أن هذا حقيقى .. التجمع الليلى والرقصة والغموض .. كل هذا يوحى بجماعة دينية سرية ما .. هذا هو أقرب تفسير لما حدث .. لكن من هم ؟ أعبدة شيطان ؟!

ـ « عبدة الشيطان يعلقون صليبًا مقلوبًا ويرسمون نجمة خماسية .. »

ـ « هذا ما تراه فى السينما يا أحمق .. لا يوجد دليل واحد على أن هذا يحدث فعلاً .. »

ثم جاء السؤال الأكبر :

ـ « هل نبلغ الكبار ؟ »

ساد الصمت .. كان من الواضح أنهم لن يفعلوا ذلك .. إن هذا أولاً قد يجلب عليهم المتاعب .. ثانيًا هم لا يعرفون حقًا ما يحدث وقد يسببون الأذى للبعض .. دعك من حقيقة أنهم قد يجدون هذا مسليًا وقد ينضمون له يومًا ما !

★ ★ ★

Bore .. هذه هى الكلمة السحرية .. كل شىء كذلك .. المدرسة .. الفيلم .. الحفل .. الأسرة ..

★ ★ ★

لكن (جيمى) فعلها ..

من المؤكد أنه فعلها .. وفى اليوم التالى كانت تلك الجثة الراقدة تحت المطر الخفيف .. لم يقل أحد كيف قتل إن كان قد قتل .. لكن الفتية عرفوا أنه على الأرجح مات لأنه عرف أكثر من اللازم ..

وبرغم هذا .. ربما من أجل هذا عادوا ..

لقد اكتسب المكان أهمية خاصة .. صار مثيرًا إلى درجة يصعب أن تقاومها .. وهو ذات السبب الذى يدفعنا دفعًا إلى إلقاء نظرة على وجه جثة .. هذه النظرة لا نريدها .. ربما

تثير اشمئزازنا أو تطاردنا للأبد .. لكننا عاجزون عن منع نفسنا من ذلك ..

(هارلسون) هو الفتى القوى الذى لا يخاف شيئًا .. يصحب فتاته إلى ذات الموضع فى الوقت الذى يصل فيه أول القادمين .. لذات السبب يحب الأمريكيون سينما السيارات Drive in .. تلك الدور لا تعرض إلا أفلام الوحوش من الدرجة العاشرة ، وهذا يتيح للفتى أن يصطحب فتاته ويظهر لها كم هو قوى بارع .. طبعًا هى غير خائفة فعلاً بل تدعى ذلك ، وهو لا يواجه خطرًا حقيقيًا لكنه يتظاهر بذلك .. إلا أن سينما السيارات لا وجود لها فى بلدة منسية كهذه ..

هو يشعر الآن بقلق حقيقى .. ربما هو البرد .. ربما هو ذلك الإدراك لأن ما يحدث أكبر من دعابة .. إنه شىء شيطانى غامض يجتاح البلدة .. لا يعرف كنهه لكنه قوى جدًا ..

قال لها :

ـ « فلنعد .. »

قالت فى رفق :

ـ « بالعكس .. أرى أن أروع ما فى الموضـوع يحـدث الآن .. »

لم يكن هناك شىء رائع .. ربمـا يحدث المشهد الرهيب بعد قليل لكنه فجأة يشعر بأنه واهـن جدًا متعب جدًا .. لم يعترف بأنه خائف إنما أقنع نفسه أن أبـاه سيحطم أنفـه لو تأخر أكثر من هذا .. وكان أبوه من هذا الطراز فعلاً ..

ـ « الآن نرحل .. »

ـ « بل هى البداية .. لن أنتظر الفيلم ساعتين ثم أفـارق دار السينما عندما يبدأ .. »

صمت .. وأحس بيدها تعتصر يده .. ثم دنت منه أكثر .. شعرها يلامس وجهه .. عطرها المنوم .. يا لهذا الجو ! إنهم يطلقون عليه الصيف الهندى هنـا .. عندمـا تصـير الأشياء أجمل قرب نهايتها ..

أغمض عينيه .. إنهـا الأنوثة الخـالدة تظلله من شـمس الواقع الحارقة .. ربما ليس من العار أن تلتمس الأمن لدى فتاة ، ففى البداية كنت تلتمس الأمن من امرأة .. وكانت هـى

كل شـىء لـك .. تمنحك الأمـن والغـذاء والـدفء وتبـدل كافولتك المتسخة ..

وهنا حدث شىء غريب ..

أدرك أن (سـاندرا) تثبته على الأرض بقوة كأنها أحـد المصارعين ..

وأدرك فى تلك اللحظة الفاصلة بين النعاس واليقظة .. بين الحياة والموت .. بين الغفلة والفهم التام المرعب ..

أدرك أنها تغرس أسنانها فى حنجرته ..

وتقضم ...

★ ★ ★

-5-

جاء الاستدعاء الثانى لـ (شوارتز) بينما كان عائدًا مع (هارى شيلدون) للموتيل بعد جولة صباحية ..

كانت محطة البنزين تبدو مريبة لأن سيارة شرطة كانت تقف هناك ، وجوار السيارة كان يقف نائب مأمور من الطراز المألوف فى الأفلام الأمريكية .. يبدو أنهم يصنعونهم بالدستة هناك .. متأنق يضع نظارة سوداء تلعب دور المرآة .. محدود الذكاء ومتراخ ..

كان يثرثر مع الحسناء (باتريشيا) التى غادرت المتجر ووقفت معه .. وعندما رأى (شوارتز) واقفًا ناداه ، وأشار بتراخ إلى اتجاه ما :

ـ « يريدونك .. »

ـ « من الذين يريدوننى ؟ »

بصق اللادن الذى كان يلوكه ، وقال :

ـ « المأمور طبعًا .. من سواه ؟! »

نظر (شوارتز) إلى (هارى) مستغيثًا فهم هذا الأخير بأن يرافقه إلى السيارة ، لكن النائب قال ساخرا :

ـ « هذه ليست نزهة فى الخلاء لو كنت تفهم ما أعنيه .. لا يمكنك أن تدعو أصدقاءك .. »

أدرك (هارى) أن الفتى معه حق ، دعك من أن بداية علاقته بالمأمور لا توحى بخير ، ولن يتحمس هذا لقدومه أو يرقص طربًا لذا أعلن أنه يفضل البقاء ..

كان باب السيارة مفتوحًا فألقى (شوارتز) جسده فيه وتساءل :

ـ « هل أحضر أدواتى معى ؟ »

قال الفتى وهو يركب بدوره خلف عجلة القيادة :

ـ « لم يحدد شيئًا .. هات كل شىء .. »

لكن (شوارتز) كان يعرف أن استدعاءه على الأرجح بسبب جريمة جديدة .. جريمة من الطراز الذى تمتلئ فيه الجثث بالديدان بلا تفسير واضح .. وقدر أنه لا داعى لإحضار حقيبته .. سوف تصلح أية زجاجة نظيفة مؤقتًا ..

وتنطلق السيارة عبر شوارع البلدة التى بدأت تعج بالعمال ..

عندما رأى المشهد من بعيد أدرك أنه محق أكثر من اللازم .. هناك ذلك الزحام من الفضوليين الذى استطاع المأمور ببراعة أن يبقيه بعيدًا فلا يرى أى شىء .. هناك المأمور يقف وقد بدا عليه الفخر كالعادة باعتباره أنجز عملا رائعًا ..

هناك الجثة الراقدة على الأرض .. جثة شاب على الأرجح .. سراويل جينز وحذاء رياضى ..

من هذا المكان لا يستطيع تبين أية تفاصيل دقيقة .. ربما باستثناء أنه لا يوجد للجثة رأس ولا صدر ..



وكان (هارى) يقف فى الممر يرمق البلدة من النافذة المطلة على محطة البنزين .. من هنا يرى الطريق العام والصحراء من بعيد .. الصبار فى كل مكان يضفى على المشهد طابعًا فريدًا .. والجبال فى الأفق .. ربما هى تغرس جذورها فى الحدود المكسيكية .. من هنا يأتى المتسللون

ومن هنا يفر المجرمون .. الوحشة هى طابع المشهد .. خاصةً مع الهواء الساخن الذى يجعل الموجودات تتموج ..

بلدة كئيبة فعلاً . وقد بلغت روحه الحلقوم ..

(بانج بانج) ..

غريب صوت الطبول هذا ..

لو شئنا الدقة لقلنا إنه ليس صوت طبول .. الطبول تقول : (بوم بوم!) . .. أما هذه فهى (بانج بانج) .. أقرب إلى صوت معدنى كالذى يمكنك أن تحدثه بالدق على علبة معدنية ..

لكن من يهتم بهذه الأمور فى بلدة مصدر رزقها هو المناجم ؟!

لم يكن يعرف شيئًا عن أعمال المناجم .. أو هو يعرف قشرة عن الموضوع .. لا بد أن فى الموضوع خوذات وعربات تجذبها الحبال وديناميت و ...

وطرقات على علب معدنية ..

سمع صوتًا من خلفه فالتفت ..

رأى باب حجرته مفتوحًا والساقية الحسناء (باتريشيا) التى تعمل كذلك بائعة وخادمة غرف تخرج حاملة المكنسة ودلوًا .. إنه موعد التنظيف ويبدو أنها اختلست بعض الوقت لتصعد وتنهى عملها .. وكان يعرف أن ما قامت به فى الغرفة هو التالى : شدت ملاءة الفراش من جديد ، ثم كومت الأتربة تحت طرف البساط .. هذا هو كل شىء ..

لكنه لم ينكر أنها بارعة الجمال .. تبدو مهيبة فاخرة وهى تقف بقامتها الفارعة وتغلق الباب ..

رأته واقفًا عند نهاية الممر فقالت فى مرح :

- « هاى »

ثم عاد وجهها لبروده المعتاد ..

قال لنفسه إنها من الطراز كليل الحس .. وربما تتمتع بسايكوباثية Psychopath كذلك .. يمكنها أن تقتل طفلاً دون أن تهتز .. ومن الغريب كما قلنا أن هذا يعطيها فتنة خاصة .. سحرًا لا يمكن فهم مصدره ..

وهنا نتذكر شيئًا عن (هارى) .. إنه من النوع الذى ينجذب للجميلات بسرعة ، وإنه لا يعتبر هذا خيانة لزوجته .. ما دام لم يقع فى الحب فهو لا يعتبرها خيانة .

قال لها وهو يعقد ذراعيه على صدره لأنه لا يعرف أين يضعهما :

- « كلما رأيت فتاة جميلة مثلك تقوم بهذه الأعمال .... »

ولم يكمل عبارته كأنما يريد كتابة مأساة إغريقية تصف لوعته لهذا الحدث المفجع ..

نظرت له مفكرة للحظة ، ثم قالت :

- « هم م م »

وعادت تفتح باب الغرفة المجاورة الخاصة بـ (شوارتز) ..

عاد (هارى) يقول وهو يعرف أنه سيتلقى العديد من الصفعات المعنوية :

- « من هن مثلك ملكات فى (فلوريدا) .. »

نظرت له للحظة .. وفكرت .. ثم قالت :

- « حقًا ؟ »

وضحكت تلك الضحكة التى تعمل بطريقة (الكل أو لا شىء) .. فجأة هى تضىء وجهها كله وفجأة لا يعود لها أى وجود .. لا توجد منطقة وسطى .. كأنها توصل القابس لتشغل الضحكة ثم تفصله وتعود لتجهمها ..

قال لها وهو يتقدم فى بساطة :

ـ « ما رأيك لو دعوتك إلى العشاء ؟ هل ثمة ارتباط معين ؟ »

فكرت قليلاً ثم قالت :

ـ « لا .. لكن ليس بوسعى أن أفعل ذلك هنا .. العجوز لن يرحب .. »

ـ « أتحدث عن مكان أكثر رقيًا .. لا أقصدك بهذا الكلام .. لكن .. أنت تعرفين ما أعنيه .. لا يجب أن يكون هذا المكان ممتازًا لمجرد أنه تحت إشرافك .. »

كانت تفهم ما يريد بلا جهد .. يريد أن يقول لها : « لنجد مكانا أنظف وأرقى من هذا الوكر القذر الذى تقومين بتنظيفه .. » لذا قالت بطريقتها الباردة :

ـ « عند (جاكسون) .. هناك عشاء جيد وموسيقا .. لكن لا تتشاجر مع الصبية المحليين .. »

وكانت هذه نقطة مهمة .. بالتأكيد هى تتلقى مئات العروض من شباب البلدة فإما إنها تقبلها جميعًا ، وإما إنها ترفض .. بالتالى لن يسرّ هؤلاء شىء أكثر من المشاجرة مع فتى المدينة الثرى الوسيم الذى ظفر بـ (باتى) .. ما دام ثريًا وسيمًا فهو على الأرجح جبان رقيع ..

كان هذا يسره .. كان يحب المشاجرات .. وهو موفق فيها دومًا .. اللحظة التى يهشم فيها عنق واحد من ذوى الرقاب الحمر Red neck هؤلاء .. من الممتع أن تقابل رجلاً يعتقد أنه قوى ومن الأمتع أن تثبت له العكس .. المشكلة الوحيدة هى أن المأمور لا يحبه ، ولسوف يكون عقابه صارمًا .. لن يسأل عن البادئ .. لا بد أنه (هارى) ..

على كل حال جاءت (باتريشيا) فى الوقت المناسب لتجعل الحياة أهنأ .. لن يكون الملل ضمن مشاكله هنا إلى أن يصل ذلك الأحمق (رفعت إسماعيل) .. فتاة كهذه ستجعل حياته صراعًا دائمًا وتحفزًا وقلقًا .. وهو المطلوب ...

لكنه ما زال لا يفهم سبب حماس (رفعت) لزيارة هذه البلدة .. لقد اعتاد أغرب الأمور من صاحبه لكن هذا يفوقها جميعًا .. هذه البلدة لم ولن تكون أبدًا مقصدًا للسياح .. هناك من يحبون الجبال لكن من قال إنك يمكن أن تستمتع بها هنا ؟! شوارع ضيقة كئيبة تحيط بالمنجم .. وحياة تبدأ بالمنجم وتنتهى به .. حفر .. تنقيب .. شحن .. تفريغ .. نقل .. ثم يعود الرجال مرهقين ليضربوا نساءهم ويناموا كالقتلى ..

هناك حوادث غريبة ، لكنها بالتأكيد لم تصل لعلم (رفعت) .. دعك من أنه عرف هذا الأخير بما يكفى كى يفهم أنه لا يبحث عن المتاعب أبدًا .. إنه يفضل تجنبها لكنها تلاحقه بحماس غير طبيعى ، ولو سمع (رفعت) عن حوادث القتل هذه لفضل قضاء العطلة فى موضع آخر ..

★ ★ ★

للمرة الثانية دق المقبض على الباب ..

ـ « أنا آت .. »

واتجه الأب (ميلروى) إلى الباب وهو يجفف يديه فى منشفة فقد كان يغسل الأطباق ..

« هؤلاء الناس الوحيدون .. من أين يأتون ؟ ولأين ينتمون ؟ »

فتح الباب فوجد أمامه (كلاريسا) .. تلك الزوجة الحسناء لمدرس البلدة (رتشاردسون) .. كانت سيدة لطيفة وكان يشعر براحة معها ..

ـ « معذرة على قدومى من غير موعد .. »

ـ « كل الأوقات مناسبة يا بنيتى .. »

وأوسع لها الطريق لتدلف إلى الداخل ..

منذ اللحظة الأولى فهم أن هناك جوًا من الارتباك غير مفهوم . ثمة شىء ثقيل يجثم على أنفاسها ..

جلست فى البهو على أريكة هناك ، ووقف أمامها مستمرًا فى تجفيف كفيه :

ـ « هل ترغبين فى بعض عصير الليمون ؟ لدى بعضه »

ـ « لو سمحت »

اتجه إلى الثلاجة فصب بعض الشراب الصافى البارد فى كوب وعاد إليها .. راحت تشرب وهى تنظر له مستكشفة من فوق حافة الكوب العليا .. ثم قالت :

- « أرغب فى أن أعترف بشىء .. »

حك رأسه وابتسم :

- « لا أفعل هذا يا بنيتى .. لكنى أؤمن أن على الناس أن يعترفوا بخطاياهم لبعضهم .. ربما كان الاعتراف ليريحك أكثر »

راحت تفكر قليلاً باحثة عن كلمات مناسبة .. نهض ليجذب الستار على النافذة لأنه خمن أنها تفضل ألا يظهر وجهها وهى تتكلم ..

قال لها وهو يجلس بعيدًا :

- « يمكنك أن تتكلمى .. أنا منصت .. »

قالت بصوت هادئ وهى تنظر قدر استطاعتها فى كوب الليمون الذى فرغ واكتسى بالبخار :

- « أنا .. لم أرتكب خطيئة معينة .. »

- « ليس بوسعك أن تزعمى ذلك .. ليس بوسعك حتى أن تتذكرى عدد الخطايا التى ارتكبتيها اليوم .. »

أربكها منطقه ، فقالت :

- « لم أرتكب ما يمكن أن تضعه فى قائمة الخطايا القوية .. لكن أفكارى شريرة ولا شك فى هذا .. إننى لم أعد أعرف نفسى .. »

- « أنا منصت .. »

- « أحيانًا أشعر أن بداخلى يتصارع ألف شيطان .. هناك جحيم موقد فى أعماقى .. وأفكارى أبعد ما تكون عن الخير .. غير أننى أسيطر على نفسى سيطرة كاملة .. هذه الحرب تدور بداخلى لكنى أبقى السطح هادئًا ويرانى الناس ملاكًا .. »

قال فى روية :

- « القديسون يفعلون فى أحلامهم ما يفعله الأشرار فى صحوهم .. »

- « هذا لا يقنعنى .. أعتقد أن الشخص الخير يجب أن يكون نقيًا من الداخل والخارج .. لو جئت للمحل عندى وابتعت قطعة زبد ، ثم عدت لدارك فوجدت أنها محشوة بالصابون من الداخل لعدت لى وتشاجرت معى .. لن يقنعك منطقى وقتها .. لن يقنعك أننى بعتك قطعة زبد من الخارج »

- « مقاييس البشر فى فهم الأشياء تختلف عن مقاييس الرب »

ـ « لكن الزبد هو الزبد .. يجب أن يكون أبيض من الداخل والخارج .. »

ـ « فلننس الزبد قليلاً ونتكلم عنك .. »

عادت تتكلم بصوت رتيب وهى تحاول ألا تنظر إليه :

ـ « فى البدء كان ذلك النداء الذى أسمعه ليلاً .. ثم ... »

★ ★ ★

هؤلاء الناس الوحيدون .. من أين يأتون ؟ ولأين ينتمون ؟ »

★ ★ ★

الآن كان (شوارتز) قد تمالك نفسه نوعًا ..

فرغ من دس العينات فى كوب زجاجى أحضروه له ، ثم سده بغشاء مشمع ورباط مطاطى .. فعل هذا كله فى سيارة الإسعاف حتى لا يعرف الفضوليون .. كان المشهد مروعًا لا يصدق .. لقد رأى الكثير من الجثث لكن هذا المشهد يشعره بأنه فى ساحة حرب ..

قال للمأمور وهو يجفف عرقه :

ـ « لا تقل لى إن القتل وقع هنا .. »

ابتسم المأمور وضغط على اللفافة أكثر ، وقال :

ـ « لا .. لا يوجد ما يدل على ذلك .. هذه الجثة نقلت من حيث كانت .. ما رأيك فى الرائحة ؟ »

قال العالم :

ـ « بصرف النظر عن الرائحة الكريهة بحق ، فإن هذه اليرقات تامة النضج .. لقد توفى هذا الفتى منذ فترة »

قال المأمور بخبث :

ـ « يدعى (هارلسون) .. إنه فتوة المراهقين هنا .. وأنا أؤكد لك إنه كان سليمًا كجرس أمس .. »

ـ « لا أفهم ! ككل مرة لا أفهم »

أضاف المأمور وهو يحك شعره الأشيب الطويل :

ـ « ثم هناك الرائحة .. هل حقًا تجدها رائحة تعفن ؟ »

هنا توقف (شوارتز) ..

الحق أن شيئًا كهذا كان يخامره من وقت لآخر .. إن الروائح الكريهة تتشابه لكنها ليست ذات الشىء .. كان

يشعر منذ البداية أن هذه الرائحة كريهة لكنها ليست بالضبط رائحة الجثث المتعفنة .. لو قال هذا لاتهم بالتحذلق والسخف .. مثل الهستيريين الذين يصرون على أن هناك أنواعًا من الظلام ..

أما وقد قالها المأمور الذى لا يملك أدنى قدر من الهستيريا فقد شعر بأنه تلقى الإذن ليشعر بهذا ..

قال (شوارتز) :

ـ « ماذا تحاول أن تقوله ؟ »

ـ « لا أقول أى شىء .. فقط أعلن أننى عاجز عن عمل شىء .. إن لى سبعة عشر عامًا كمأمور لكنى لم أر شيئًا كهذا .. إن التمادى فى الخطأ خطأ أفدح .. لقد فقدنا عدة أشخاص وحتى اللحظة لم أتلق تقرير (فينكس) .. هناك أسباب وفاة واضحة أحيانًا مثل هذا الفتى الذى تم قص ثلثه العلوى .. وعامل المناجم المكسيكى الذى امتص أحدهم الدم من عنقه »

هتف (شوارتز) فى هلع :

ـ « عم تتكلم ؟ أنت لا تخبرنى بكل شىء .. »

ـ « ليس من عملى أن أبلغ سموكم بكل ما نفعله .. أنت هنا للتحقيق فى الجثث المحشوة بالحشرات .. فيما عدا هذا لا شأن لك .. »

وفى عجالة حكى له تفاصيل ما حدث أو ما تبين له .. فيما بعد استطعت تجميع القصة وإعادة تشكيلها كما يفعل رجال الحفريات ..

قال (شوارتز) :

ـ « نحن فى مأزق مخيف .. »

ـ « أنا أرى هذا .. لهذا اتصلت بـ (فينكس) طالبًا محققين .. ربما أحتاج لبعض القوات كذلك .. إن البلدة تفلت منى ولا أستطيع حماية كل مراهق أحمق وكل ذى عنق أحمر .. »

ثم بصق على الأرض جوار حذاء (شوارتز) ، وقال :

ـ « يكفى أن تعرف الصحافة بالأمر .. ولسوف أفقد وظيفتى وكل شىء .. تبًا .. هذه البلدة ظلت هادئة لعدة قرون،.. سبعة عشر عامًا لم يحدث فيها شىء .. أفظع شىء حدث أن أحدهم سرق الكشاف المعلق على مكتب البريد .. الآن تنهمر الصواعق على رأسى .. »

لم يكن (شوارتز) يصغى ..

كان عقله يعمل بلا انقطاع ..

يرقات فى جثث لم يمض على وفاتها وقت كاف ..

يرقات ناضجة ..

معنى هذا أن هذه اليرقات وضعت فى هؤلاء قبل موتهم .. وضعت فيهم وهم أحياء ..

نحن نتحدث عن ظاهرة التدويد ..

★ ★ ★

الجزء الثانى

الطبيب

« كل شىء يتغير .. البلدة سوف تركل الصندوق قريبًا .. أشعر بهذا .. (لوسيفر) العجوز قد جاء يتقاضى حقوقه .. فلألعن إن لم يحدث هذا .. »

-1-

أنا مطلوب حيًا أو ميتًا ..

لهذا يجب أن أرحل يا صغيرتى ..

ترى من سيتلو الصلاة على روحى ؟

من سيبكى على ..

حينما أتدلى من المشنقة ؟

★ ★ ★

كان هذا هو الموقف عندما وصلت إلى (دلوير) ..

منظرى غريب بالفعل وأنا أنزل من الحافلة قرب محطة البنزين حاملا حقيبتى .. من بعيد يتوهج الأفق فى حرارة الشمس والهواء يتراقص بتلك الطريقة التى تشعرك بالظمأ .. هناك موسيقا ريفية أمريكية تنبعث من مكان ما ، فتشعر أن عجوزًا ملتحيًا يجلس على سياج مزرعة يرقب الخيول ويعزف ..

يبدو المشهد كأنها لقطة من أحد أفلام رعاة البقر ، فلا ينقصنى إلا أن أرى رجلاً ضخمًا ينتظرنى فى آخر الشارع

ويتحسس مسدسه قائلا : « اسحب ! » .. لكن لو كان هذا فيلم رعاة بقر فأنسب دور لى هو دور حانوتى البلدة أو حصان عجوز مريض ..

(هارى) بانتظارى .. ذلك الصديق العزيز الذى ذاق معى قدرًا لا بأس به من (البهدلة) .. بشكل ما أشعر أنه (عزت) آخر .. (عزت) أقوى وأصح بدنًا .. لكن المبدأ واحد ..

بعد الكثير من الترحاب على الطريقة الأمريكية والـ (واو) والـ (بيبه) ، قال لى كالعادة :

ـ « أنت تزداد شيخوخة وقبحًا .. »

وهى التحية التى يلقانى بها كل شخص على وجه الأرض .. لا أعرف متى كنت وسيمًا شابًا أزرق العينين .. لكن لا بد أن هذا حدث ما داموا يملكون فكرة عن الأفضل الذى كنته ..

ثمة علامتان لفتتا انتباهى منذ وطئت قدمى أرض هذه البلدة :

أولاً .. كل الناس هنا أصحاء أقوياء يوشك الدم على الانفجار من خدودهم .. هذه علامة دائمة أراها فى الغرب الأمريكى سواء فى زياراتى أو فى كل فيلم أراه ..

ثانيًا : رائحة البلدة كريهة فعلاً .. ليست رائحة الموت أو التحلل العضوى .. لكنها رائحة لعينة ما .. هل هذه رائحة مناجم النحاس ؟؟؟

ومشينا إلى الموتيل الذى يقع فوق محطة البنزين ، حيث كان قد حجز لى غرفة ..

فى المدخل قابلت ذلك العالم الأمريكى مهيب المنظر (شوارتز) والذى لا بد أنت عرفته الآن بما يكفى .. علم الحشرات العدلى علم مهم لكنى لا أعرف عنه شيئًا وقد بدا لى غريبًا أن يوجد هذا التخصص فى هذه البلدة بالذات .. لن أندهش إذن لو اتضح أن هنا خبيرًا فى وقود الصواريخ أو نظرية الهيوليات ..

راح يرمقنى متفحصًا وهو يشد على يدى .. نظرة أعرفها جيدًا .. كأنه يقول : كل هذه الضوضاء من أجل هذا ؟ ثم قال :

ـ « حدثنى (هارى) عنك كثيرًا .. يقول إنك شخص جدير بالمعرفة .. »

ـ « على سبيل الفضول العلمى طبعًا .. لن أنسى أنك مختص بالحشرات الطبية .. »

لم يضحك .. أعتقد أن الدعابة لا تنتقل بسهولة فى هذا المكان ..

قال لى (هارى) :

ـ « أنت اخترت أسوأ وقت ممكن للقدوم هنا .. أو ربما الوقت سيئ لأنك جئت .. »

كنت أتوقع هذا ..

(هل أنا ذاهب إلى مورينسى لأنك تريدين هذا ، أم إنك تريديننى لأننى ذاهب إلى مورينسى ؟) ..

إنها تلك الأمور المتداخلة حيث لا تعرف إن كنت سببًا أم نتيجة .. هناك قصة طريفة أتذكرها الآن عن الشاعر (أحمد شوقى) .. يوم ولادته جاء شيخ معروف إلى أبيه وقال له مهمومًا : « ابنك سيكتب بيت شعر سيئًا يمتدح الخمر قائلا :

رمضان ولى هاتها يا ساق ..

مشتاقة تسعى إلى مشتاق »

كبر (أحمد شوقى) وذات يوم حكى له الكبار هذه القصة ضاحكين .. من الغريب أن بيت الشعر راق له وقرر أن يستكمل القصيدة ! هنا نجد سؤالا محيرًا : هل تنبأ الشيخ فعلاً ببيت الشعر الذى سيقوله (شوقى) أم

إنه فى الحقيقة هو الـذى ألهم (شوقى) بهذه القصيدة ؟ الخلاصة أن القصيدة قيلت بالفعل وقائلها هو (شوقى) !

قال (هارى) وهو ينادى الساقية الحسناء التى عرفت أن اسمها (باتريشيا) :

ـ « (باتى) .. أريد بعض الليمون لصديقى هذا .. أما أنا و د. (شوارتز) فسوف نتناول مشروبنا المعتاد .. »

ضحكت الفتاة ضحكة غريبة من الطراز الذى يظهر فجأة ثم يختفى .. ممـا يدلـك على أنهـا لا تعبأ باللطـف على الإطلاق لكنها تفتعله افتعالا .. على أننى قدرت أنها تميل لـ (هارى) نوعًا ..

فلما انصرفت قلت له همسًا :

ـ « يبدو أنك لم تضيع وقتك .. (هارى) الوسيم يـؤدى واجبه المنزلى »

قال فى ثقة :

ـ « أنت تعرف الملل فى هذه البقاع .. »

عدت أسأله بعد انصراف الفتاة :

ـ « الآن أريد أن أعرف .. أى نوع من المشـاكل يحدث هنا ؟ »

هكذا حكى لى باختصـار شديد ما حـدث وما عرفتمـوه أنتم .. اسمحوا لـى بدقيقة للإصغاء .. فـى كل مـرة آتـى متأخرا لأجد أن الجميع يعرف ما أجهله أنا ..

ثم إن (شوارتز) تدخل بدوره ليحكى وجهـة نظره ومـا قاله له المأمور ..

هكذا بدا لى المشهد كليًا يعج بعلامات استفهام ..

أولاً : هنـاك جرائـم قتـل .. بعضهـا لـم يعـرف سببه بعد وبعضهـا واضـح كالشمس . يجب أن أكـون حمـارًا كـى أتساءل عن سبب موت ذلك الفتى الذى اختفى رأسه وأعلى صدره . على الأقل فى جريمة واحدة هناك ما يوحى بمص الدماء بشدة ..

ثانيًا : فى ثـلاث حـالات على الأقل هنـاك ظهـور مريب لليرقـات فـى الجثـة التـى لـم تجد الوقت الكـافى لتتعفـن .. (شوارتز) يتحدث عن ظاهرة التدويد ..

ثالثًا : ثمة كلام عام مبهم عن جماعة غامضة هنا تمارس ما يوشك على أن يكون طقوسًا دينية ، لكن أحدا لا يعرف من هم ولا أين يجتمعون .. هذه ثرثرة تتنقل بين المراهقين .. يدعم هذا كلام القس (ميلروى) عن جثث قطط يبدو أنها قد سلخت ..

قلت بعدما انتهى هذا العرض الشائق :

ـ « الأمر واضح ولا يحتاج إلى حاسب آلى .. إن هذه الجماعات الشيطانية توجد من حين لآخر .. القتل هنا قتل طقسى ritualistic .. ربما يتضمن مص الدم كذلك .. سوف يمارسون عملهم بعض الوقت ، ثم تقبض عليهم الشرطة .. »

ابتسم (شوارتز) ، وقال فى هدوء :

ـ « لا يوجد تفسير آخر .. لكن ماذا عن اليرقات ؟ »

حقًا .. هناك يرقات .. هذا يثير الغيظ .. كلما تمكنت من تركيب أجزاء اللغز وقف جزء معين فى الطريق وفى حلقك .. وهو موقف معتاد فى الطب على كل حال .. الصورة تتفق مع مرض التيفود لكن ماذا عن الزيادة المرعبة فى كريات الدم البيض ؟ ربما لو حدث ثقب فى الأمعاء يكون التفسير ...

ـ « التدويد .. »

قالها (شوارتز) فى ثقة ..

التدويد Myaisis هو من المشاهد الدرامية المخيفة بالنسبة لدورات حياة الذباب .. أنت تعرف تلك الذبابة الزرقاء اللامعة وتلك التى ترتسم رقعة الشطرنج على بطنها .. هذان نوعان من الذباب العملاق الذى يدخل حجرتك ويصطدم بالزجاج والجدران كأنك بصدد وطواط لا ذبابة .. حسن .. إن لها كرامة مثل زميلاتها ومن حقها أن تحظى بأسماء لاتينية معقدة ، لكنى لن أذكرها هنا .. لهذه الأنواع من الذباب عادة كريهة هى أن تبيض على أنسجة حية .. تخرج اليرقات الشبيهة بالديدان من البيض وتزحف تحت الجلد أو تتخذ موضعًا مريحًا فى الجروح لتنمو .. بعضها يبيض على فتحات الجسم .. هناك حالات تدويد تجد فيها اليرقات فى الجهاز الهضمى أو المثانة ؛ لأنها ببساطة وضعت بيضها على فتحة البول .. إنها فكرة مرعبة تحمل كل مخاوف التحلل العضوى التى هى أساس الرعب .. لو كان الرعب هو خوفنا من التفكك العضوى وما قد يحل بأجسادنا ، فإن هذه الفكرة جديرة بجائزة الأوسكار .. لكنها حقيقة علمية كأية حقيقة أخرى .

ما يريد (شوارتز) قوله هو : لقد وضع الذباب بيضه على أجساد أحياء ثم ماتوا فحسبناه جاء بعد موتهم ..

ـ « والسبب ؟ »

ـ « لا أعرف »

وساد صمت رهيب .. كل واحد يفكر فى معنى هذا .. ولماذا لم يتكرر فى كل حالة ؟ بل لماذا يتكرر ؟ إن التدويد يحدث فى ظروف خاصة جدًا ومحدودة جدًا ..

قال (هارى) بعدما فرغ من إنهاء شرابه :

ـ « ما أراه هو أن علينا أن نرحل .. لو كان هناك عمل ما ينتظرك يا (رفعت) فلتنته منه بسرعة .. »

قال (شوارتز) :

ـ « أنا لا أملك هذا الترف .. إننى مكلف بمهمة رسمية .. على كل حال أعتقد أن البلدة ستعج بالغرباء قريبًا .. المأمور مصر على الاستعانة بهم فى (فينكس) .. »

ـ « ما هذا ؟ رجل الأمن العتيد يتنازل ويقبل العون أخيرًا ؟ »

ـ « هذا واضح .. إن الموضوع أكبر منه .. »

ـ « عندما تتحدث عن القط ... »

ونظرت لأرى القط المذكور ، فرأيت المأمور يدخل الحانة أو الكافتيريا لا أعرف بالضبط ..

من اللحظة الأولى عرفت أنه مغرور مزعج .. ليس غبيًا وبالتأكيد له نظرة ثاقبة للأمور لكن التفاهم معه مستحيل ..

دخل المكان وهو يجفف عرقه .. كرشه العملاق يهتز أمامه فلو كان لى كرش كهذا لحرصت على أن أبقى قميصى خارج السراويل لا داخله .. لكنه كما يبدو يفخر به .. من خلفه نائبه أو ما يطلقون عليه Deputy .. شاب متبختر مائع نوعًا .. هذا نمط معروف هو الآخر .. علاقته بعمل الشرطة هو أنه يجعله وسيمًا أنيقًا يروق للفتيات ، لكنه أول من يفر فى لحظة الخطر ..

ـ « نريد شرابًا باردًا يا (باتى) .. »

ثم مشى نحو منضدتنا فى تؤدة .. وقف جوارها ولمس قبعته على سبيل التحية التى هى أقرب للسباب .. وقال وهو يرمقنى من فوق لتحت :

ـ « هذا هو المصرى المولع بالسياحة ؟ »

قال (هارى) فى برود :

ـ « البروفسور (إسماعيل) طبيب مصرى مرموق . »

لم أكن مرموقًا لكنى ابتلعتها لأنى صرت أعرف خلفيات الرجلين ..

قال المأمور وهو يصلح من وضع قبعته :

ـ « قل لصاحبك لو كان لا يفهم الإنجليزية إننا فى أوقات خطرة .. على الرجل أن يقوم بما يجب على الرجل أن يقوم به ! »

ضحكت فى سرى إذ سمعت هذه الجملة بالذات ..

ثم إنه اتجه إلى منضدة مجاورة فجلس .. ولحق به مساعده ..

قال لى (هارى) :

ـ « تجاهله .. إنه يتظاهر بشدة البأس لكنه أول من سيبلل سراويله لو قابل خطرًا حقيقيًا .. »

ابتسم (شوارتز) فى إنهاك ، وقال :

ـ « لو قابل خطرًا حقيقيًا ؟ إنك متفائل يا صاحبى ! لا أعرف لماذا أعتقد أننا تجاوزنا هذه النقطة من زمن !! »

★ ★ ★

-2-

فيما بعد عرفت هذا الجزء ..

لقد اتجه (هارى) إلى ذلك المكان الذى اتفق عليه مع الساقيةَ الحسناء (باتريشيا) .. (عند جاكسون) .. هكذا يطلقون عليه .. مكان راق وموسيقا كما قالت ..

كنت أنا قد نمت كمومياء (حتب حرس) لأننى كنت مرهقًا من عناء اليوم ، وقد أراحه هذا من تقديم الأعذار كى يتخلص منى ..

دخل المكان بينما صوت مطرب ريفى ينبعث من مكان ما :

« أنا مطلوب حيًا أو ميتًا ..

لهذا يجب أن أرحل يا صغيرتى ..

ترى من سيتلو الصلاة على روحى ؟

من سيبكى على ..

حينما أتدلى من المشنقة ؟ »

الصوت الرنان الحارق أشعل ذكرياته .. صحيح أن هناك مشانق فى الموضوع لكن يجب أن تكون أمريكيًا لتفهم سحر الهائم على وجهه أو الـ drifter .. ذلك الغريب الذى يقضى كل يوم فى بلد ومع فتاة أخرى .. ولا أحد يعرف من هو حقًا .. ربما كان هاربًا من العدالة وهذا يضفى عليه المزيد من السحر .. حتى لو كان سفاحًا فهو يصير بطلا بالنسبة للأمريكيين .. هذه نقاط فى تكوينهم يصعب أن نفهمها .. ثم تأتى ذروة الرومانسية فى اللحظة التى يتدلى فيها مشنوقًا ..

المكان مظلم كالقبر .. رجال يجلسون إلى البار يشربون ويمزحون بالجينز والقبعات .. بينما يشق هو طريقه وسطهم .. يتخذ موضعًا هناك ..

عند مدخل القاعة يراها .. قادمة فى الإضاءة الخافتة التى لا تترك منها إلا السلويت .. شعرها يهتز مع خطواتها .. فارعة ممشوقة كأنها جواد برى ..

تدنو منه فيحييها .. تهز رأسها وتبتسم تلك الابتسامة الخاطفة ..

ـ « أنت تخلصت من (سكروج) العجوز »

- « ليس هذا صعبًا .. »

تقولها وتجلس فيطلب لها شرابًا .. الموسيقا تتعالى ثم تظهر فتاة طويلة الشعر مجعدته تلبس الجينز ، وتمسك بجيتار عملاق .. وعلى دقات مرحة مع التصفيق تغنى :

« (جونى) .. أمسك بالقوس واعزف كمانك جيدًا ..

إن الجحيم قد تفجر فى (جورجيا) والشيطان يوزع أوراق اللعب ..

فلو فزت لربحت هذا الكمان الجميل المصنوع من الذهب ..

ولو خسرت لظفر الشيطان بروحك ! .. »

وينهض الشباب ليرقصوا على النغمات .. ظلام فى ظلام لكنك من آن لآخر ترى وميض سيجارة أو أسنانًا تلمع .. الفتاة تضرب الأرض بكعب واحد مع الإيقاع ، وتقدم أحدهم يضع لها برميلاً لتصعد إليه بينما هى تواصل عزف

الكمان .. ومن مكان ما برز راعى بقر معاصر يصاحب الإيقاع بدقات بالملعقة والشوكة ..

سأل (هارى) فتاته وهو يرفع صوته كى يجتاز صخب الموسيقا :

- « هل ولدت هنا ؟ »

- « وأموت هنا .. إن أمى تقيم قرب المتجم .. لكنى أبيت أحيانًا فى الموتيل .. »

- « الصبى يشرب اللبن مع أمه ! »

جاءت هذه من المنضدة المجاورة ، وقد قدر (هارى) أن قائل هذه العبارة لا يتكلم عن صبى يشرب اللبن مع أمه على الأرجح .. إنه هناك من يسخر منه .. لكنه تظاهر بأنه لم يسمع ..

سألها :

- « هل أروق لك ؟ »

نظرت له فى برود وقسوة ، وقالت :

- « رأيت من هم أفضل .. »

ثم أردفت مفكرة :

ـ « أنت مسن جدًا بالنسبة لى .. »

تلقى الضربة التى يتلقاها للمرة الأولى فى حياته .. لقد اتهموه بالخرق والاندفاع والغباء لكن لم يتهمه أحد بالشيخوخة قط .. ابتلع العبارة ، وقال :

ـ « إذن لماذا تخرجين معى ؟ »

قالت فى برود وقسوة :

ـ « ربما لأن ظروفك المادية أفضل .. من الممكن أن تعطى فتاة مثلى نزهة مشبعة .. إنك لست من الشباب الذين يدعوننى إلى شطيرة من الهامبرجر ثم يتوقعون أن أهيم بهم حبًا .. معهم أجد الحب ومعك أجد المال ! »

كانت قاطعة كالسيف حادة .. لكنه كما قلنا كان مولعًا بطريقتها هذه .. البرود الجذاب .. القسوة الساحرة ..

أشعل لفافة تبغ عندما سمع من يقول فى الظلام :

ـ « لا .. لا .. ليس أمام ماما أيها الصبى الجميل ! »

نظر لها فى حدة ثم نظر إلى الوراء فسمعها تقول :

ـ « لا تندفع .. تذكر ما قلته لك .. أنت لم تسمع شيئًا »

لكن هل ينطبق هذا الكلام على (هارى) كتلة العصبية والاندفاع التى تم صبها فى صورة رجل الترجمة الدقيقة لتعبير (طبيعة نارية) ؟! إنه يحب المشاجرات ولن يترك فرصة كهذه تمر .. لقد نهض كالمجنون ليراهم .. مجموعة من الشباب ذوى الأعناق الحمر يجلسون على البار وهم ينظرون له بتحد ووقاحة .. كانوا أربعة فقط .. هذا يجعلهم فى خطر حقيقى ..

قال وهو يشير إلى صدره فى تحد :

ـ « هل تكلمنى أنا ؟ »

قال أضخمهم جثة ـ الذى لبس قميصًا (كاروهات) ـ وهو يبصق كناية عن الاستهتار :

ـ « لنفترض ذلك .. فماذا تنوى عمله ؟ ما هى حركتك ؟ »

ـ « هل تكلمنى أنا ؟ »

كما كان (دى نيرو) يفعل فى فيلم (سائق التاكسى) .. ذلك الأداء العصبى التصاعدى المميز .. وسرعان ما وثب

فى الهواء ليدفن رأسـه فى صدر الفتى .. ثم اعتصر عنقـه بين يديه ..

صرخ البعض وساد هرج ومرج .. بينما سقط ذو العنق الأحمر من على مقعده وهو يسب ويلعن .. فى هذه اللحظة انقض عليه الفتية الآخرون بالركل واللكمات ..

معركة قصيرة هى .. كنت أتمنى أن أقول إن (هارى) قهرهم لكن الكثرة تغلب الشجاعة ، دعك من أن تتمتع الكثرة بهذا الحجم الضخم والعضلات المتفجرة .. كـانت مذبحة أو أوشكت أن تكون كذلك .. خاصة بعدما تهشمت بعض الزجاجات لتتحول إلى خناجر ..

هنا فقط دوى الصوت الحازم :

ـ « توقفوا !! »

تصلب الجميع ليروا كرش المأمور المميز وهو يشق طريقه بين الزحام .. لم يتجه إلا نحو الرجل الراقد على الأرض والدم ينزف من حاجبه .. (هارى) .. أمسك به من ياقة قميصه وأنهضه ..

ـ « أنت يا رجل (فلوريدا) ! قلت لك إننى لا أريد مشاكل فى مدينتى .. إن لى سبعة عشر عامًا كمأمور فى هذه البلدة وأعرف أمثالك جيدًا .. »

قال (هارى) وهو يحاول النهوض والدم يغمر وجهه :

ـ « تكلم عن المشاكل وأعوام خبرتك مع هذه الثيران .. إنهم تحرشوا بى .. هذه البلدة هى المكان الذى جمعوا فيه كل بلطجية البلاد »

ـ « اخرس ! »

قالها أحدهم وهو يوجه ركلة لصدر (هارى) مما جعله يصرخ ألمًا .. لكن المأمور لم يوجه له أى لوم .. فقط ظل يكلم (هارى) كأنما هذا الموقف لم يحدث :

ـ « سوف تأتى معى بكل تهذيب .. لا أريد مشاكل أخرى .. »

إنها فرصته إذن .. هو يتوق لهذا منذ التقيا أول مرة .. نهض (هارى) مترنحًا .. ونظر نظرة ينبعث منها الشرر إلى الفتية .. كان الدم يسيل من أنف أحدهم لكن هذا كل

شىء .. وأتى أحدهم بحركة بذيئة بيده عالمًا أن (هارى) لن يستطيع الرد ..

قالت (باتريشيا) بطريقتها العملية وهى تغلق حقيبتها وتدسها تحت إبطها :

ـ « فعلاً أنا آسفة .. لكنى مضطرة للانصراف الآن فقد تأخرت ! »

قال أحد الفتية باسمًا :

ـ « لا داعى لإفساد سهرتك .. نحن فى الخدمة يا (بتى) ! »

لم ينتظر (هارى) ليعرف ما حدث لأن المأمور جذبه جذبًا إلى الخارج .. ولا يعرف كيف ولا متى وجد نفسه داخل السيارة التى تدور كشافاتها وتعوى سرينتها .. يشق الطريق وسط الواقفين خارج الملهى .. بدا المشهد كأنما تم اعتقال (هتلر) نفسه ..

قال له المأمور وهو يسب المتلكئين حول السيارة :

ـ « ليلة فى الحجز بعدها تشعر بتحسن .. »

قال (هارى) فى لا مبالاة وهو ينظر خارج زجاج النافذة ويضغط بمنديله على حاجبه :

ـ « ليلة فى الحجز لأن هؤلاء الأوغاد ضايقونى ؟ ألا ترى أن العدالة لها طرق غريبة فى هذه البلدة ؟! »

ـ « اخرس يا رجل (فلوريدا) .. لن أنتظر قدوم أمثالك ليعلمونى مهنتى .. ليس بعد سبعة عشر عامًا »

هكذا قرر (هارى) أن يخرس .. وقدر أن ليلة فى الحجز سوف تهدئه فعلاً ..

سوف يدفعون الثمن .. (هارى شيلدون) لا يترك نفسه مدينًا لأحد .. وسوف يكتبون إيصالات التسلم بالدم ..

★ ★ ★

ترى من سيتلو الصلاة على روحى ؟!

من سيبكى على ..

حينما أتدلى من المشنقة ؟!

★ ★ ★

الحر قائظ ..

لو قال لى أحد إننى سأختنق لهذه الدرجة فى الولايات المتحدة لاتهمته بالجنون .. إن العقل الشرقى يتصور أن كل ما هو خارج إفريقيا وشبه الجزيرة العربية مناطق باردة إلى درجة الموت تجمدًا ..

خرجت من غرفتى ووقفت فى النافذة التى فى الممر أحاول أن أجد بعض الهواء .. لا جدوى .. دعك من أن هذه الرائحة الكريهة لا تختفى .. أنت تعتادها فتنساها لكن بضع دقائق فى أى مكان نقى الهواء تجعلك لا تطيق شمها من جديد ..

وهؤلاء المجانين يطلقون على هذا الجو (الصيف الهندى) باعتباره معتدلاً .. أى اعتدال هذا ؟!!

نظرت لباب غرفة (هارى) فقدرت أنه نائم على الأرجح .. إنها الثانية صباحًا .. على أن أسلى نفسى بنفسى ..

ارتديت أخف قميص عندى .. أى إنه ذلك القميص الرمادى الصوفى طويل الكمين .. وفتحت زرًا واحدا تحت عنقى .. سوف تسمحون لى بهذا التحرر الكسائى طبعًا فلن تقبلوا أن أظل بالبذلة وربطة العنق حتى أموت مسلوقًا ..

هبطت فى الدرج شاعرًا بالخجل من منظرى المنحل .. وفى ضوء المساء كانت محطة البنزين غافية .. ظلام دامس ما عدا بعض أضواء إعلانات الكولا وسهمًا يشير إلى مضخة البنزين ..

من بعيد أرى هذه البقاع الوهاجة .. إنها الحشرات حاملة المشاعل بلا ريب .. إنها خنافس لكن منظرها يشبه الديدان الطائرة .. هذا الخطأ وقع فيه (دريك) القبطان والقرصان الشهير ، عندما رآها فى جزر الهند الغربية فكتب عن (الديدان المتوهجة الطائرة فى الجو) ..

مشيت وسط المحطة بمعالمها الساكنة كأنها ديناصورات نائمة .. المتجر الصغير مغلق ومظلم لكن هناك آلة مياه غازية بالخارج .. هكذا دسست فيها عملة معدنية منبهرًا بهذه التكنولوجيا التى كانت بعيدة جدًا عنا فى السبعينيات .. بعد قليل كنت أعتصر فى يدى علبة باردة مثلجة وألصق بها خدى فى حنان ..

من بعيد أسمع صوت نطاط الحقل .. هل هناك حقول هنا ؟ المهم أنها حشرة ليلية ما لا تكف عن الصياح ..

- « تقول (كاتى فعلتها) يا صبى ! »

أجفلت ونظرت إلى الوراء فوجدت ذلك العجوز الذى يطلقون عليه (سكروج) .. نموذج البخل الذى يقترب مما نسمعه فى الأساطير حتى استحق هذا الاسم ..

لم أكن قد قابلته لكنى عرفت أنه هو ..

رجل عجوز مكتنز بشع الخلقة .. ربما (مقرف) كذلك .. يبدو أنه يعانى حالة بهاق متقدمة .. يبدو كذلك أنه يستشفى من إصابة فالج جعلته لا يحرك نصفه الأيسر تقريبًا .. كان جالسًا على مقعد وقد أراح قدميه الموضوعتين فى خفين على إفريز مرتفع أمامه .. وكان يمسك بعلبة كولا هو الآخر وينظر لى فى ثبات من تحت حاجبين كثيفين ..

وجد أنه مطالب بتفسير فأردف بصوت لزج ثقيل :

ـ « هذا الحفار يحدث صوتًا بأجنحته .. والصوت يشبه عبارة Cathy did (كاتى فعلتها) .. لهذا نطلق على هذه الحشرة اسم (كاتى ديد) .. كلما كان حرارة الجو أعلى أمكنك سماع ما فعلته (كاتى) ! »

أمعنت الإنصات للصوت .. فعلاً .. لم يخطر لى هذا ببال لكنه تشبيه دقيق :

كاتى ديد .. كاتى ديد .. كاتى ديد .. كاتى ديد .. كاتى ديد .. كاتى ديد ..

لكن ماذا فعلت (كاتى) ؟ يبدو أن الرقابة حذفت هذا الجزء .. هذا نموذج آخر للفوارق بين ثقافات الشعوب .. لم يحسم بعد الخلاف حول ما إذا كان الخروف يقول (ماء) عندنا أم (باء) عندهم .. بومتهم تتساءل (من Who?) ، بينما عندنا تعوى القطة منادية (داوود) والكروان يردد (الملك لك لك) ..

قال العجوز :

ـ « البعض يقوم بعد النغمات خلال ١٥ ثانية .. هلم .. جرب هذا .. »

نظرت له فى غباء ثم رحت أنظر لساعتى المضيئة .. واحد .. اثنان .. ثلاثة ..

ـ « أربعة .. »

ـ « أضف لهذا الرقم أربعين تحصل على حرارة الجو ! »

إذن حرارة الجو ٤٤ مئوية ؟ سبحان الله ..

ـ « هذه الحشرات حساسة للحرارة فعلاً .. سوف تجد أنها تخرس عندما تقل حرارة الجو عن ١٥ .. إن الطبيعة كتاب مفتوح يا صبى .. »

صبى ! لم يطلق على أحد هذا اللفظ منذ كنت فى العاشرة .. برغم كل شىء أسعدنى أن هناك من يكبرنى سنًا إلى هذا الحد .. ربما كان القميص الرقيع الذى أرتديه هو السبب ..

راح يحكى لى الكثير عن الصحراء وعادات الحشرات حتى فتنت فعلاً .. بصوته الثقيل (المشلول) يحكى لى حتى بدأت أسترجع الدرس القديم : يمكنك أن تحب أى إنسان مهما كان شكله إذا دنوت من روحه .. هذا الرجل ليس سيئًا .. معظم الناس طيبون ..

إلى أن تقترب من مصالحهم بشكل خطر !!

سألنى عن موطنى وعن سبب قدومى فحكيت له ما تيسر .. قال لى :

ـ « حر لعين .. كنا نعيش الصيف الهندى لكن الطقس انقلب فجأة .. فى سنى يصير الحر عذابًا مقيمًا .. البرد كذلك .. باختصار أنت لا تطيق أى تغير فى حرارة الجو يا صبى .. »

ثم فكر قليلاً وأضاف :

ـ « كل شىء يتغير .. البلدة سوف تركل الصندوق قريبًا .. أشعر بهذا .. (لوسيفر) العجوز قد جاء يتقاضى حقوقه .. فلألعن إن لم يحدث هذا .. »

كنت أعرف تعبيرات الغرب هذه أو بعضها .. يركل الصندوق أو يشترى المزرعة معناها الموت . يبعثر الفول معناها أنه عصبى .. بينما يواصل الرجل الكلام :

ـ « يقولون إننى أبخل وغد يمكن أن تجده على الحدود الجنوبية .. ربما هم محقون .. لكن فى سنى هذه يصعب أن تجد صديقًا غير المال يا صبى .. إنه لا يكذب عليك ولا يسرقك ولا يتخلى عنك .. ولولا المال الذى أملكه لألقونى فى الصحراء لكلاب البرية .. هذه المحطة والموتيل هما ما خرجت به من مشوار حياتى .. وأنا مصمم على ألا أفقدهما إلى أن يلقوا بى فى القبر .. »

ثم سألنى فى لهفة :

ـ « هل معك سجائر ؟ »

ـ « لا .. ولو كان معى فلن أعطيك .. »

ـ « هـذا الطبيـب اللعين يصر على أن أمتنـع عنهـا .. عرضت عليه مـالا مقابل أن يسـمح لـى بـالتدخين لكنـه رفض .. وبعد هذا يقولون إن (سكروج) العجوز أبخل وغد فى الولايات .. »

ثم نظر إلى الأفق الشبحى المغلف بالظلام ، وقال :

ـ « فى يوم من الأيام كان هذا هو الغرب الحقيقى .. حيث الرجال رجال حقًا .. يؤمنون بمقولة واحدة .. »

قلت مقاطعًا :

ـ « على الرجل أن يقوم بما يجب على الرجل أن يقوم به ! »

نظر لى لوهلة فى ذهول وقال :

ـ « يا للشيطان .. لست غبيًا كما تبدو يـا صبـى .. من أخبرك بهذا ؟ »

★ ★ ★

(جونى) .. أمسك بالقوس واعزف كمانك جيدًا ..

إن الجحيم قد تفجر فـى (جورجيا) والشيطان يـوزع أوراق اللعب ..

فلو فزت لربحت هذا الكمـان الجميل المصنـوع من الذهب ..

ولو خسرت لظفر الشيطان بروحك !

★ ★ ★

صحوت من النوم متعكر المزاج .. أى إننـى صحـوت بحالتى الطبيعية ..

لكنى لم أحب جو الغرفة عندما صحوت .. حـارة جدًا رطبة جدًا .. فالشمس تدخلها بحريـة تامـة عبر الستائر والنافذة مفتوحة .. جو عام من اللزوجة والتعاسة .. دعك من كثرة الذباب وهو ذباب صحراوى شرس ..

الرائحة الكريهة الغامضـة تتسرب من النافذة .. وهذا لـم يجعل الحياة أروع ..

وقفت أحك رأسى ربع ساعة على الأقل ثم اتجهت إلى الحمام الصغير الملحق بالغرفة ..

نظرت لـوجهى فى المـرآة .. ثمـة شىء غير طبيعـى .. وضعت عويناتى ودققت النظر .. نعم .. هـذا هو السبب .. شفتى السفلى مجروحـة داميـة .. لـو شـئت الدقـة فهـذه

عضة .. عضة تلقاها اللحم الطرى وكادت تنتزع منه جزءًا .. الغريب أننى لم أشعر بأى ألم ..

فى البدء شممت تلك الرائحة العطرة الساحرة ، ثم شعرت بحركة فى الغرفة فخرجت .. وجدت تلك الفتاة (باتريشيا) .. الفتاة باردة الطباع إياها .. كان تحمل مكنسة وتقوم بعملها بحماس بأن تكوم الغبار تحت البساط ..

شعرت بحرج لأننى كنت أقف بالفانلة الداخلية وسراويل المنامة .. وأدهشنى أنها لم تقرع الباب .. ثم وجدت إنه لا داعى للحرج لأنها لم تلحظ وجودى أصلا .. فلو وقفت فى طريق مكنستها لأخفتنى تحت البساط أنا الآخر ..

التقطت حاجياتى المكومة على الفراش فألقتها إلقاء فى خزانة الثياب ثم شدت الملاءة .. وجهها لم يتغير لحظة ..

قلت لها فى حرج :

ـ « معذرة يا آنسة .. ا .. صباح الخير .. »

ـ « صباح .. »

قالتها دون أن تنظر لى .. فقلت فى حرج أكثر وأنا أشير لشفتى :

ـ « هذه .. وجدت هذه .. »

نظرت لى فى برود .. كأنها تحاول استبعاد كل ما لا يمت لموضوع السؤال .. أى إنها وضعت على جسمى ووجهى ملاءة سوداء فلم تبق إلا شفتى .. ثم قالت بذات البرود :

ـ « هذه قبلات .. هى قبلتك وأنت نائم ! »

عمن تتحدث ؟ معجبة خفية ؟ هل بلغ بها الوله بى هذا الحد ؟ أعترف أننى أملك ثغرًا جميلاً أنا فخور به .. شفتين رقيقتين هما الشىء الوحيد الجميل فى وجهى لكن إلى هذا الحد ؟!

رأت الغباء على وجهى فقالت :

ـ « بقة القبلات طبعًا .. ! إنها تعيش هنا .. كلنا جرب هذا »

وأشارت إلى شفتها فرأيت ندبة خافتة هناك ..

ـ « هى نوع من البق تتسلل حيث يرقد النائمون وتعضهم فى شفتهم .. يبدو أنها تفرز مخدرًا ما لأن أحدا لا يلاحظ هذا إلا فى الصباح !! »

مثل الوطاويط مصاصة الدماء التى تخدر الجلد فلا يشعر الضحية بأنه يثقب وأن الدم يؤخذ منه .. هكذا قلت لنفسى .. واقشعررت للفكرة ..

- « هل .. هل تسبب مرضًا ما ؟ »

- « أنت أدرى يا (دوك) »

استجمعت ما أذكره من طب المناطق الحارة ، وقلت :

- « بالفعل أعرف بقة (ترياتوما Triatoma) التى تعض النائمين فى شفاههم وتنقل لهم مرض (شاجاس Chagas) اللعين الذى أودى بحياة العالم الشهير (داروين Darwin) .. لكن معلوماتى أنها موجودة فى أمريكا الجنوبية والوسطى فقط .. لعل بقتنا هذه بقة حمقاء أو متسللة تطلب الهجرة .. »

هذه الفتاة تعامل الناس كمجانين إلى أن يثبت العكس .. وجدتنى أقول أشياء غريبة على غرار (ترياتوما) و(داروين) و(شاجاس) .. إلخ .. فمارست أسلوبها المعتاد .. ظلت تصغى إلى متظاهرة بأن كلامى الفارغ مهم جدًا ، ثم لم تعلق ونسيت الأمر برمته ..

أضافت وهى تتجه للباب :

- « صديقك .. ذلك الأشقر .. »

- « هل مات ؟ »

ضحكت فى ربع ثانية ثم عادت لبرودها ، وقالت :

- « سوف يتمنى ذلك .. لقد تشاجر فى الملهى وقبض عليه المأمور .. إن (بيكر) العجوز كان ينتظر هذه الفرصة منذ رأى وجهه !! »

وغادرت الغرفة ..

بقة القبلات أعجبت بى !

هذا يدعو للفخر ..

* * *

-3-

أدور حول السجن راسمًا خططًا جهنمية ..

هناك نافذة عليها قضبان .. وهى منخفضة .. لن يحتاج الأمر إلا إلى جواد قوى وأنشوطة .. وخطاف أربطه بالقضبان ثم أركض فتنتزع النافذة .. يخرج المأمور ليطلق على الرصاص لكنى أرديه قتيلاً ثم أفر وخلفى على الفرس (هارى) .. أنا الآن (ديسبيرادو Desperado) يفر إلى الحدود المكسيكية فصلى من أجلى يا أماه .. صلين من أجلى يا كل حسناوات أريزونا ..

ترى من سيتلو الصلاة على روحى ؟!

من سيبكى على ..

حينما أتدلى من المشنقة ؟

كنت أفكر فى المشكلة الوحيدة التى تعوق تنفيذ هذه الخطة ألا وهى العثور على حبل ، عندما وجدت أنى أقف أمام (هارى) !! هو بعينه لكنه مرهق مجعد الثياب متورم العينين .. دعك من الدم الجاف على حاجبه ..

- « هل .. هل تركك ؟ »

- « طبعًا .. كان يريد تأديبى فى الحجز ليلة على سبيل التهذيب .. وقد انقضت .. »

- « جئت لأخرجك أو أدفع كفالة أو .. »

- « لم يستأهل الأمر هذا كله .. لم أطلق الرصاص على مدرسة أطفال .. بالمناسبة ماذا أصاب شفتيك؟ »

- « دعك من جمال مظهرى ولنعد بك للموتيل ، لأنك تبدو على وشك الموت .. »

لم تكن سيارته هنا لأنه تركها أمس أمام ذلك الملهى .. لذا مشينا فى شوارع المدينة التى تحرقها الشمس .. قال لى وهو يحك ثيابه :

- « يبدو أن البراغيث ممنوعة فى هذه البلدة .. لهذا يلقون بها فى ذات الزنزانة التى كنت فيها »

- « قالت لى (باتريشيا) إن عقابًا أفظع من البراغيث ينتظرك .. »

- « لم تكذب كثيرًا .. »

وراح يحكى لى ...

★ ★ ★

ـ « تعلمت كيف أدس أقراص المنوم لزوجى .. وحينما ينتظم تنفسه كنت أغادر البيت .. أهرع فى الظلام إلى ذلك المكان الذى اعتدنا أن نلتقى فيه .. »

صب لها القس بعض الشاى ثم عاد لمقعده ..

إنها تواصل الاعترافات المذهلة .. وهو يشعر بالهلع يومًا بعد يوم .. لكنه لا يعرف كيف يتدخل .. هذه أسرار خصوصية لا يحق له أن يخبر بها طرفًا ثالثًا .. لو جاءك (نيرون) وأخبرك أنه ينوى إحراق (روما) غدًا فهل تفشى السر ؟ قانون الاعتراف يقول : لا ..

كانت (كلاريسا) الزوجة الحسناء تواصل الكلام وهى تمسك بقدح الشاى .. الرجفة فى يدها جعلت القدح يحدث رنينًا منتظمًا .. وقالت :

ـ « لم يحدث شىء .. أعنى أنه لم يحدث شىء مما قد يخطر لك ببال .. كنا نرقص فى دائرتين .. رقصة خاصة لم يعلمها لى أحد لكنى وجدت نفسى أجيدها .. نرقص .. نرقص حتى يغلبنا التعب .. »

ظل صامتًا ثم قال السؤال الذى كان يضنيه :

ـ « لا شىء من تلك الأشياء المشينة ؟ أنت تفهمين قصدى .. »

ـ « لا .. أعرف أنك تتحدث عن طقوس الخصوبة وما شابه .. لا .. فقط الرقص .. ثم كان هو يظهر .. »

كان قد سمع هذا الجزء من قبل .. لذا أشار لها بيده كى تتجاوزه .. فقالت :

ـ « هكذا استمر الحال عدة أيام .. حتى بدا الأمر يتخذ طابعًا مثيرًا أكثر .. أنت تعرف حالة الغيبوبة والذهول التى يسببها الرقص المتواصل .. لهذا بدا مع الوقت أننا منومون مغناطيسيًا وأن بوسعنا عمل أى شىء .. وهكذا بدا الجزء المرعب من الأمر وهو السبب الذى دفعنى للقدوم هنا .. لقد جئتك كى ... »

ـ « كى ماذا ؟ »

* * *

ـ « كى أتألم .. كنت منهكًا .. ورحت أتفقد الزنزانة الصغيرة التى ألقى بى فيها الرجل .. »

كنت أمشى مع (هارى) تحت ضوء الشمس الحارق وهو يواصل حكايته .. لا صوت سوى أزيز الذباب .. الشوارع خالية تمامًا .. فقط يمكنك أن تسمع صوت الطبول المعدنية إياه .. من حين لآخر تمر بنا سيارة لا نرى قائدها ..

ثم أردف :

ـ « كان هناك فى الركن لوح خشبى طويل معلق للجدار فى وضع أفقى .. وخطر لى أن هذا على الأرجح فراش .. اتجهت نحوه فى الضوء الخافت المنبعث من مصباح واحد .. وعبثت بيدى كى أنسقه .. هنا فوجئت بأنه رجل نائم ! رجل نائم على لوح حقيقى .. رجل نحيل جدًا وقد ساعد لون ثيابه مع تغطيته لوجهه مع الوضع الغريب الذى اتخذه للنوم ، فى إقناعى بأنه لوح خشب .. طبعًا أصابنى الهلع فتراجعت للوراء .. نهض هو من الفراش .. كان أكثر من رأيت فى حياتى نحولا ، حتى إنه كان بوسعه الفرار بين القضبان لو أراد .. له وجه متعب فاقد الحماس .. قال لى :

ـ « لا تخف من (سام) أيها الغريب .. إن لى هنا فترة لا بأس بها حتى نسيت أن هناك بشرًا بالخارج .. على كل حال أعداء (بيكر) العجوز هم أصدقائى .. »

جلست جواره على ذلك اللوح الحقيقى .. هنا وجدت لهلعى أن هناك شيئًا راقدًا على الأرض ، وقد ساهمت الإضاءة الخافتة فى ألا أتبينه ..

ركعت على ركبتى أتفحصه فوجدت أنه جسد بشرى .. جسد متكوم كخرقة ثياب عند قدمى بالضبط .. مددت يدى وهززته فشعرت كأنما أهز كومة ثياب بالفعل .. وأخيرًا انقلب على ظهره فرأيت الوجه الميت الشاحب .. تحسست عنقه فأقسم أننى لم أستشعر نبضًا ..

نظرت لجارى فى هلع ، وقلت :

ـ « جارك فى الزنزانة ميت ! »

قال بلا مبالاة :

ـ « آه ! هذه الأشياء تحدث .. »

ـ « ولا تبالى ؟ »

ـ « آه .. حقًا .. »

رحت أحاول تقليب الجثة الملقاة عند قدمى .. يجب أن أنادى المأمور .. ما نوعية هذا الحجز الذى يترك الجثث فيه حتى تتعفن ؟!

فى اللحظة التالية فتح هذا الراقد عينيه وجلس .. لم يفعل هذا ليخيفنى ولم يكن يمزح .. فقط جلس كأنه كان يمارس عملا طبيعيًا معتادًا ، وقال :

ـ « آه .. نعم .. أعداء (بيكر) العجوز هم أعداؤنا !! »

ثم ساد الصمت .. كانت هذه هى الطامة الكبرى .. تخيل ليلة مع هذين العجيبين .. ولم نتبادل أية كلمات أخرى ، غير أننى لم أنم ..

فى الصباح فتح المأمور الباب الحديدى حاملا صحفة عليها قهوة وبعض الخبز الجاف ، وأشار لى باشمئزاز قائلاً :

★ ★ ★

ـ « لا تأكلوا أكثر من حاجتكم ! »

عند هذا الحد كان القس قد بلغ نهاية تحمل جهازه العصبى .. أوع ! وأفرغ معدته فى عنف ..

ثم نهض وهو يجفف شفتيه وهتف :

ـ « أنا آسف .. فعلاً آسف !! »

عاد إلى الداخل وأحضر مكنسة وممسحة بينما (كلاريسا) جالسة لا تتحرك ولم يبد أنها اهتمت بتاتًا بكونه أفرغ معدته أمامها .. راح ينظف وهو يرتجف ..

وفى النهاية عاد ليجلس وشرب جرعة ماء ، وقال :

ـ « إن معدتى تقلصت .. »

ثم هتف فى هلع وقد استعاد المشهد :

ـ « هل هذا هو ما كان يحدث كل ليلة ؟ »

ـ « ثلاث ليال متوالية حتى قررت أن آتى وأخبرك بهذا كله »

ـ « هل تعرفين ما تقولين ؟ إن هذا أخطر اعتراف سمعته فى حياتى .. »

ـ « لكنه سيظل سراً .. أنت وعدت بذلك »

ـ « هذا الذى يحدث مناف للطبيعة .. إن هذا الشىء يأمركم بخرق كل قواعد البشرية المتعارف عليها حتى بين قبائل (البوشمان) .. وهل شاركت فى هذا النشاط ؟ »

ـ « للأسف نعم .. »

ـ « وراق لك الأمر؟ »

ـ « لم يكن سيئاً على الإطلاق .. »

ـ « وماذا عن هذا الشخص المختار ؟ »

ـ « كان ينهض فى النهاية وهو يبتسم .. كان بخير .. لم يؤذه ما حدث على الإطلاق .. »

ـ « وكان هو ذات الشخص كل ليلة ؟ »

ـ « كلا .. كان يتبدل .. وفى الليلة الثانية شاركنا مختار الليلة الأولى ذات الطقوس مع شخص آخر »

فكر القس قليلاً .. وراح يجفف صدره المبتل ثم قال :

ـ « إذن هى لعبة دوارة كالكراسى الموسيقية .. لا بد أن يأتى عليك الدور يوماً ؟ »

قالت فى هدوء دون أن يبدو على وجهها أى انفعال :

ـ « لا .. الشخص المختار هو من تلك المجموعة ذات البطون الكبيرة .. أعتقد أن هناك أشخاصاً تم إعدادهم لهذا »

إن الأمر سيئ .. فكر القس .. إنه أسوأ من أى شىء قرأ أو سمع عنه فى ألعن طقوس عبادة الشيطان فى التاريخ .. الغريب أنه صار الآن يتمنى أن يكون الأمر متعلقاً بعابدى الشيطان .. على الأقل يمكن مجابهة هؤلاء وأساليبهم معروفة ..

قال لها :

ـ « حسن .. هل عدت لهذه اللقاءات بعد مجيئك لى ؟ »

★ ★ ★

ـ « لا .. »

قالها (هارى) وهو يفتح باب غرفته فى الموتيل .. وأردف :

ـ « لا .. لم يقدم لى إفطارًا .. قال إنه مخصص للأخوين (كالاهان) .. إذن هذان كانا أخوين .. قال وهو يناولنى

حاجياتى إنهما فتيان طيبان لكنهما يملكان ميولا صبيانية مثلى .. أحدهما يهوى التظاهر بالموت لعدة ساعات حتى إن أكثر من مواطن مذعور اتصل بالمأمور ليخبره برؤية جثته .. الآخر يستغل جسده الرفيع فى التوارى ويفزع الناس عندما يتحرك .. إنهما صبيان مزعجان وفى السجن خير علاج لهما .. لكنهما يعانيان حالة مزمنة من العودة للسجن كلما خرجا منه .. يبدو أنهما يسليانه على كل حال .. أنت تعرف هذه العلاقة التى تنشأ بين السجين والسجان مع الوقت .. »

ثم أضاف (هارى) :

ـ « وفى اللحظة التى خرجت فيها إلى الشمس وجدتك أمامى .. »

ـ « لم أعرف أنك مسجون إلا صباح اليوم .. »

ـ « لكن ماذا أصاب شفتك ؟ »

ـ « بقة خطر لها أن شفتى جميلة .. هذا نوع من الإطراء .. »

ـ « وهل هذا خطير ؟ أعنى هل يمكن أن تكون حقنتك بالسم ؟ »

ـ « لا أعتقد .. لكن هناك مرضًا مرعبًا ينتقل بهذه الطريقة .. سوف أرى .. »

ثم توقف (هارى) وهو ينظر إلى الفراش الذى لم يمس ليلة أمس فى غرفته ، وسألنى :

ـ « بالمناسبة .. هل رأيت (باتريشيا) اليوم ؟ »

★ ★ ★

ـ « نعم .. مرة أو اثنتين .. »

استشاط القس غضبًا .. لم يكن ممن يغضبون بسهولة لكن الأمر استفزه ، فقال لها :

ـ « أنا لا أتعالى على الخطيئة .. إن الإنسان واهن بطبعه .. لكنى لا أبتلع أن يعترف المرء بإثم وهو مستمر عليه مخلص له .. »

للمرة الأولى بدا انفعال على وجهها فرفعت عينين دامعتين له ، وقالت :

ـ « أنت لن تفهم يا أبت . إن الأمر أقوى منى .. يسهل أن تتصور الأمور بسيطة وأنت جالس هنا .. وعندما تكون

هناك تجد أنه من المستحيل أن تفلت .. كما يبذل مدمنو المخدرات الوعود أمام الناصحين ، فإذا انفردوا بأنفسهم وجدوا أن الأمر عسير حقًا .. »

لكنه كان يفهم أن هناك سببًا آخر .. لقد رأى خطاة كثيرين ويعرف أن ما يدفعهم للاستمرار فى الإثم هو ذلك الشعور الغامر بأنهم تلوثوا فعلاً .. الثوب الأبيض صار أسود ولم يعد من الممكن غسله .. إنهم يفقدون احترامهم وتقديرهم لذواتهم من ثم لا يرون بأسًا من التمادى ..

كان يعرف أن الخطوة الأولى هى إعادة ثقة هؤلاء بأنفسهم وبأن الله سوف يغفر لهم إذا هم تابوا فعلاً ..

لكنه ـ للمرة الأولى ـ يشعر بأنه غير بارع .. إنه واهن عاجز عن مساعدتها أو اتخاذ قرار ..

ما قالته له كان مفزعًا .. وهو يدعم ذلك الشعور بقرب النهاية الذى يمضه منذ البداية ..

« لو كنت تؤمن بالمواجهة النهائية مع الشيطان أيها الأب فلتهنأ بالا .. يبدو أنك ستعيش لتراها !! » .. قالها له المأمور يومًا ويبدو أنه كان على حق فعلاً ..

المشكلة هى أن جنود الخير مرتبكون متفرقون عديمو الخبرة بكيفية مواجهة موقف كهذا .. دعك من أن بعضهم مثل المأمور لا يبدون جنود خير على الإطلاق ..

قال لها بصوت مبحوح :

ـ « للمرة الأخيرة أطلب منك هذا الطلب .. لا تذهبى هناك أبدًا .. لو ذهبت الليلة أو أية ليلة فاعلمى أن بابى مغلق من دونك .. »

★ ★ ★

« الأب (ماكنزى) ينفض الغبار عن يديه وهو يفارق قبرها ..

فلم يتم خلاص أحد . .

هؤلاء الناس الوحيدون .. من أين يأتون ؟ ولأين ينتمون ؟ »

★ ★ ★

ـ « هى التى أخبرتنى بأنك سجين »

ابتسم (هارى) وتحسس الجرح على جبهته ، وقال :

- « فتاة عملية جدًا .. ما إن نشبت المشاجرة حتى انصرفت دون أن تنتظر لتعرف ما حل بى .. »

- « هكذا تفكيركم عامة معشر الأمريكيين .. أو هذا ما أعتقده .. لعل سبب ارتباطى بك هو أنك أمريكى يحمل قلبًا مصريًا .. ولكن دعنى أحذرك من التورط مع هذه الفتاة .. إنها فى رأيى تملك ذات رقة وحنان سمكة القرش .. »

- « وهذا سر سحرها .. »

ثم تأمل وجهه فى المرآة المعلقة على الحوض ، وقال :

- « أنت (ميزوجين misogynic) حقيقى .. تتوقع دائمًا أن المرأة كائن (آخر) غامض .. خطر داهم .. »

- « وأكون على حق .. من المؤسف أننى أكون على حق .. »

فعلاً من المؤسف أننى أكون على حق ..

★ ★ ★

-4-

كاتى ديد .. كاتى ديد .. كاتى ديد .. كاتى ديد .. كاتى ديد .. كاتى ديد ..

★ ★ ★

هل هى أنت ؟

كنت جالسًا فى الكافتيريا مع دخول المساء أتناول طعام العشاء عندما رأيتها .. (هارى) لم يكن هنا ولا (شوارتز) .. كان هناك رجل أو اثنان من الذين مروا بالبلدة عابرين فقرروا تناول طعامهم .. تلك الفتاة (باتريشيا) تثرثر معهما وهى تدس يدها فى جيب المريولة الذى تضع فـ .....

عندما رأيتها ..

دخلت الكافتيريا .. رقيقة كالحلم شفافة كأحزان المساء ..

هل هى أنت ؟ أعرف أنك قادمة للقاء اتفقنا عليه .. لكنى لم أتصور أن يحدث علنًا وفى مكان عام .. ثم نظرت

إلى العلامات الخمس فلم أجد أيًا منها .. كلا .. لست أنت ولكم يحزننى هذا ..

الفتاة ترتدى ثوبًا صيفيًا خفيفًا يجعلها أكثر شفافية .. ولها ذلك الأنف العظمى البارز نوعًا الذى لا أرى جمالا فى أى وجه ما لم أره .. النحول .. العينان الساحرتان .. الأصابع الطويلة النحيلة والمعصم الذى ترى كل وريد فيه .. دعك من الإرهاق العام .. إن الحر يقتلها برغم أن المساء قد جاء ..

مرت بجوارى فشممت أقوى رائحة عطر شممتها فى حياتى .. عندما يخرج العطر من دائرة العطر إلى دائرة المخدرات .. ما اسم هذا الشىء ؟

الحق أننى رحت أقطع الحساء بالسكين وأشرب الخبز .. وفى سرى شعرت بذهول لأننى ما زلت حيًا إلى هذا الحد .. فجأة ينتزعنى أحدهم من وراء المجهر الذى أراقب به الحياة ليضعنى تحته .. أتحول من مراقب للجراثيم إلى جرثومة سعيدة ..

كانت تمشى بين المناضد .. ثم نظرت لى فى حيرة .. تتساءل لماذا أنظر لها بهذا الاهتمام ..

جلست إلى منضدة بجوار النافذة .. منضدة عليها أباجورة ساطعة تؤذى العين لكن بدا أنها لا تبالى بها .. أزاحت الستار لترمق الليل فى الخارج فى نهم .. اتجهت لها الساقية فرسمت لها بيدها شكل قدح قهوة .. وتكورت أناملها لترسم الدخان الخارج منه ..

ثم نظرت لى من جديد ..

نهضت بلا تفكير واتجهت إلى منضدتها ..

رفعت نحوى عينين متسائلتين ، فقلت وأنا ألوم نفسى على هذا التهور :

ـ « معذرة .. أعرف أن طلبى غريب .. هل تعرفين د. (رفعت إسماعيل) ؟ »

نظرت لى فى غباء .. فأردفت :

ـ « هل سمعت عنه ؟ »

ـ « لا .. »

ـ « إذن هل تمانعين فى أن تعرفيه ؟ »

نظرت لى وبدأت تفهم وأشرق وجهها نوعًا .. فقلت فى كياسة :

ـ « لنكن عمليين .. أنا لن أترك هذه الفرصة تفلت أبدًا لأننى قد لا أقابلك ثانية .. ربما كان فى شخصى ما يثير اهتمامك .. لندع المظهر جانبًا لكنى أنصحك أن تجربى وفى النهاية لن تخسرى شيئًا .. »

قالت فى دهشة :

ـ « ما هذا الذى تقوله ؟ »

ـ « أقول إننى أضعت من الفرص فى حياتى ما يكفى لجعلى أعرف الفرصة التالية الموشكة على الضياع .. إنه ذلك الشعور بأنك جئت هنا بالذات لسبب قدرى معين .. لا أتحدث عن هيامى بك فأنا لم أرك إلا منذ ثلاث دقائق .. أتحدث عن حاجتى إلى معرفتك أكثر .. »

قالت وهى تضحك :

ـ « بالله عليك اجلس .. لا يحتاج الأمر إلى خطبة إغريقية .. »

وهكذا جلست .. وكان أول ما فعلت هو أن أطفأت الأباجورة قبل أن أصاب بالعمى ..

بدأت تسألنى عن نفسى فأجبت بأمانة ..

جاءت الفتاة (باتريشيا) بالقهوة ، ونظرت لى بخبث .. ثم وقفت تصغى السمع فى صفاقة .. فنظرت لها قائلاً :

ـ « هل تريدين شيئًا ؟ »

ـ « هل أضيف الحساب على الفاتورة يا دوك ؟ »

ـ « العشاء ! طبعًا .. أنت تفعلين هذا دومًا .. »

ـ « بل أتحدث عن القهوة .. قهوة الآنسة ! »

هذا نوع من الإحراج المتعمد فقلت لها فى غلظة أن تفعل .. فلما انصرفت سألت الفتاة عن حياتها .. من هى ؟ من أين جاءت ؟ لا بد أن زهرة نرجس تنهدت فى مكان ما فخرجت هى من بين بتلاتها .. ربما جاءت من حيث تجسر النسور وحيث يحلم النمل الأخضر .. من حيث تتوارى الأقمار .. كان (جحا) يعتقد أن الأقمار القديمة يتم تكسيرها ليصنعوا منها الأهلة .. لا بد أنها جاءت من بقايا الأقمار هذه ..

قالت بصوت لا يمكن وصفه :

- « فى الحقيقة لى حياة لا أريد الكلام عنها .. لنقل إننى أحاول أن ألقى بها وراء ظهرى .. لنقل إننى من (المولودين من جديد) .. دعنا لا نتحدث عن هذا .. »

- « واسمك .. هل لديك واحد ؟ »

- « أفضل أن تناديني (ماى) .. »

- « ليكن .. أى شىء .. »

نظرت حولها لتتأكد من أن أحدا لا ينظر ، ثم قالت :

- « لعلك تساءلت عن السبب الذى جعلنى أقبل عرضك بالتعارف .. »

هززت رأسى فى عدم فهم .. حسبت أن السبب أننى كنت رائعًا أو على الأقل مقنعًا ..

قالت باسمة :

- « الحكاية هى أننى أبحث عن عريس .. وأنت تبدو صالحًا .. هل تقبل الزواج منى ؟ »

نظرت لها فى غباء .. (رفعت) العجوز لا يقابل إلا المخابيل .. هذه عادته .. إن كنت ريحًا فقد صادفت إعصارًا .. أنا الذى حسبت تصرفى مجنونًا بما يكفى ، قوبلت بما هو أكثر جنونًا ..

قلت لها وقد توترت :

- « ماذا تعنين ؟ أنا لم ألقك إلا منذ ربع ساعة .. »

- « هذا كاف .. أنت تعتقد أنه من واجبك أن تعرفنى أكثر . وقد اقتنعت .. »

قلت لها فى حزم وقد صعد الدم إلى رأسى :

- « أنت تعبثين بى .. أنا آسف .. كالعادة يعتقد المرء أن الرأس الجميل يحوى عقلا أجمل ، لكن هذا خطأ فى كل مرة .. »

عادت تقول بإصرار :

- « لا مزاح فى الأمر .. من فضلك .. أنا جادة تمامًا .. سوف يزوجنا قس القرية ونمضى شهر العسل فى هذا الموتيل .. »

قلت لها وأنا أنهض :

ـ « آسف .. دعك من أننى أجنبى وهناك إجراءات معقدة للزواج .. لكنى أرى الأمر كله مزحة .. »

وتركتها جالسة حيث هى وجلست بعيدًا أحاول ألا أنظر باتجاهها .. (باتريشيا) اللعينة رفعت الأطباق التى كنت آكل منها وهى مليئة .. ليس على أن أتحمل جراح الكرامة والقلب فقط ، ولكن يجب أن أتحمل الجوع كذلك ..

★ ★ ★

كاتى ديد .. كاتى ديد .. كاتى ديد .. كاتى ديد .. كاتى ديد .. كاتى ديد ..

★ ★ ★

مرت بى (باتريشيا) فقالت دون أن تنظر لى شيئًا لم أتبينه .. لا صعوبة على كل حال فى استنتاجه .. لا بد أن هذه هى النسخة الأمريكية من تعبيرنا نحن المصريين (يا ميت خسارة على اللى حب ولا طالش) .. إنها تسخر منى ..

مرت دقيقة .. ثم رفعت رأسى على صوت يقول :

ـ « لكنى متزوج !! »

نظرت فى دهشة إلى مصدر الصوت فأصبت بالهلع .. كانت الفتاة الرقيقة تقف أمام الرجلين اللذين كانا يتناولان الطعام وهى تحاول إقناعهما بشىء .. وقد بدت عليهما الدهشة .. التفتت إلى الرجل الثانى وكررت عرضها فهتف فى مزيج من الغلظة والمزاح :

ـ « لا أحد يتزوج بهذه الطريقة ! »

هذه الفتاة مجنونة فعلاً .. لم تكن تمزح .. لقد فقدت كل إعجاب بها ليتحول الأمر إلى مزيج من الشفقة والرعب .. منذ دقائق كنت أخطب ودها والآن أتجنبها كأنها مصابة بالجذام .. دعك من شعورى بالشفقة لأنها تنزف كرامتها الأنثوية ، بذات الطريقة التى يفزعك فيها مشهد رجل ينزف دمه على قارعة الطريق .. لا يجب أن تمر فتاة بتجربة كهذه .. رباه ! لا يجب أن تتعرض فتاة لتجربة كهذه .. الرجال يتحملون أكثر وجلدهم ثخين بما يكفى .. أما هذه ..

هنا دخل (هارى) المكان وهو يصفر .. ومن خلفه جاء (شوارتز) بقامته الفارعة المهيبة ..

ـ « هاى (باتى) .. »

قالها للساقية فردت ببرودها المعتاد :

ـ « هناك فتاة ترغب فى الزواج .. لو كنت تفكر فى الأمر فلا تتردد .. »

نظر إلى (ماى) الواقفة ثم نظر لى فى عدم فهم .. فى هذه اللحظة رأيت الفتاة تأتى من حيث كانت ، وتقف أمام (شوارتز) ، لتقول فى أدب :

ـ « سيدى .. هل أنت متزوج ؟ »

ـ « مطلق يا بنيتى .. لكن هل من سبب يدعوك لهذا السؤال ؟ »

ـ « هل ترغب فى أن تتزوجنى الآن ؟ »

نظر لى ولها ولـ (هارى) فى حيرة ، فقال (هارى) :

ـ « هذا الرجل يدعى (رفعت إسماعيل) .. وهو مصيبة تتحرك على قدمين .. حيثما وجد تجد الغرائب والفظائع .. عندما تكون معه لا تندهش من أن تقابل فتاة تعرض الزواج على أى شخص يقبل .. »

كنت فى سرى أشعر بأن الفتاة ليست مجنونة على الإطلاق .. ثمة سر مهم وراء هذا الطلب .. هناك فيلم عربى قديم من بطولة (ماجدة) كان عليها فيه أن تظفر بعريس خلال أربع وعشرين ساعة وإلا فقدت حقها فى الإرث .. احتمال وارد لكنه خيالى جدًا .. الاحتمال الثانى هو أن هذه candid camera وهناك من يصورنا خفية ليضحك المشاهدون .. احتمال ضعيف لأن أحدا لا يبالى ببلدة كهذه ..

تجاهل (شوارتز) الفتاة الواقفة على بعد متر منه ، وقال :

ـ « حكى لى (هارى) عن العضة التى تلقيتها فى شفتك .. أنا أيضًا تلقيت واحدة عندما جئت هنا .. هل تعتقد أننا فى خطر ؟ »

قلت فى بساطة :

ـ « أنت عالم الحشرات الطبية .. المفترض أن تخبرنا أنت .. »

ـ « وأنت طبيب .. يبدو أن الموضوع موزع بيننا فلن يجيب أحد .. »

هنا رأيت الفتاة تفارقنا فتعود إلى المنضدة التى كانت تجلس إليها ، فتزيح قدح القهوة .. أبعدت الستار قليلاً عن النافذة وراحت تنظر بانبهار غير مبرر إلى أضواء محطة البنزين بالخارج .. ثم أسندت رأسها إلى ساعديها ونامت على المنضدة ..

قال (شوارتز) :

ـ « هذا أفضل .. سوف تفيق بحالة أفضل .. بينى وبينك أعتقد أنها تلقت صدمة عاطفية ما .. ربما تخلى عنها حبيبها وظلت تهيم على وجهها حتى جاءت هنا .. »

بدا لى الأمر معقولاً ..

عاد (شوارتز) يواصل الكلام :

ـ « مر (هارى) بليلة عجيبة فى الحجز مع هذين الأخوين (كالاهان) .. مجرد صبيين مزعجين غريبى الأطوار .. إن هذه البلدة غريبة .. كل ما فيها لا يريح .. متى تزمعان الرحيل ؟ »

لم أكن أملك إجابة .. على أن أنتظرها حتى تأتى .. لو كانت هى تلك الفتاة لانتهت مشكلتى .. لكن على أن أنتظر ..

« هذا موعد بلا أعذار .. موعد يشبه الموت وعليك أن تلبيه أردت أم لم ترد .. »

هذا ما قالته لى .. وأنا أعرف من دون سواى أن هذا صحيح ..

قلت وأنا أحدق فى أفق لا أراه :

ـ « هناك أعمال يجب أن أقوم بها .. »

قال (شوارتز) :

ـ « هؤلاء الرجال من (فينكس) آتون غدًا .. سوف تبدو البلدة كساحة حرب .. »

فى هذه اللحظة دوت شهقة ..

نظر الجميع إلى مصدرها .. كانت (باتريشيا) تقف جوار تلك الفتاة (ماى) .. وقد سقطت الصحفة التى كانت تحملها ..

الفتاة ما زالت غافية على المنضدة ، لكننا الآن نفهم سبب الصرخة ..

(باتريشيا) تقول فى هلع :

ـ « الفتاة !! لقد ماتت !! »

★ ★ ★

-5-

- « هل تأتى معى ؟ »

كانت (ساندرا) تقف هناك فى ظلام الشارع والهواء يعبث بخصلات شعرها .. و(بيلى) كان هناك أيضًا ..

- « هل تأتى معى ؟ »

هذا هو العرض .. خذه أو اتركه .. أنت تعرف أنت تريد هذا .. لكن مشهد جثة (هارلسون) لا يفارقك ..

قال لها :

- « أنا أطالب بأن نبتعد .. إن ما يحدث شرير .. شرير بحق .. وقد فقدنا (جيمى) و(هارلسون) .. »

قالت فى صبر وهى تضغط على كلماتها :

- « (هارلسون) تصرف بحماقة .. لا أعرف كيف تصرف ولا كيف ضبطوه لكن هذا لن يحدث معنا .. »

- « ما زلت مترددًا .. »

قالت وهى تستدير مبتعدة :

- « كما تشاء .. أنا ذاهبة بنفسى .. يجب أن أعرف ما أصاب (هارلسون) .. من قتله ؟ »

- « سنجد جثتك فى الصباح .. »

- « سوف يروق لى هذا .. على الأقل سأعود شبحًا لأؤرق منامك للأبد .. »

ولم يتكلم بينما هى تتوارى فى ظلال الشارع .. كان يعرف أنه تصرف بجبن .. لكنه يعرف كذلك أن الأبطال المندفعين يلقون حتفهم سريعًا .. المقابر تعج بجثث الذين قرروا أن يبدوا أشجع ..

الحقيقة أن حياته بعد وفاة (هارلسون) تحولت إلى جحيم .. كابوس مستمر .. الأسوأ أنه كان يعانى المركب الفرويدى المعروف .. عندما يموت شخص نمقته فإن هذا يجعلنا نشعر بأننا مسئولون عن موته ويقتلنا تأنيب الضمير ..

(الجثة كانت بلا رأس ولا عنق ولا كتفين) .

هذا هو الفتى الذى كان مليئاً بالحيوية ووساوس الفحولة .. ماذا حدث له ؟ من فعل هذا ؟

يبدو أن المأمور يتخبط بلا هدى .. هذه طريقة قتل أقرب لأساليب الوحوش .. لو كان هناك نمر طليق فى البلدة لأمكن فهم الأمر ..

لكن (بيلى) كما قلنا كان يحب (ساندرا) وقد شعر بعد قليل بأنه نذل .. هى ذى حبيبتك تمضى فى الليل وحدها إلى أخطر بقعة على ظهر الأرض .. فماذا ستقول وماذا ستفعل عندما يجدون جثتها غداً ؟ عندما ينظر لك ذلك القاضى الصامت ـ فى مرآتك ـ الذى لا يرتشى ولا يقبل الأعذار ، فماذا عساك تقول ؟

هكذا وجد نفسه يمشى فى ذات الاتجاه الذى مشت فيه ..

إنها تتجه إلى الجسر القديم قرب المنجم .. هذا هو مكان الاجتماعات المعتاد .. لكنها سبقته .. إذن عليه أن يجتاز طريقاً مختصراً ..

كانت (مخالب الشيطان) هى تلك الأخاديد الصغيرة التى كانوا يلعبون فيها فى طفولتهم . اسم شاعرى جداً يصف تلك المجارى المائية الجافة التى تتشعب حتى تصل إلى المنجم .. وهى ليست طريقاً سهلاً لكنه يختصر الوقت ..

(بونج بونج) .. صوت القرعات المعدنى هذا ..

إن الليلة مقمرة ، لهذا بوسعه أن يجرب اجتيازها ..

سوف يلحق بها هناك فى ذات لحظة وصولها .. ولسوف يراقب معها الطقوس لدقائق ثم يقنعها بالعودة معه ..

★ ★ ★

من بين عينيه المغمضتين شعر بها تتحرك بحذر فى الغرفة ..

تتحرك بخفة .. ترتدى ثيابها ثم تنتعل الحذاء الخفيف .. ومن حين لآخر ترميه بنظرة عابرة لتتأكد من نومه ..

كان الأستاذ (رتشاردسون) الآن يرى المشهد الذى فاته حوالى عشر مرات من قبل ، والسبب هو جرعة المنوم التى تدسها فى شرابه كل ليلة .. لكنه الليلة قد بدأ يشك فى

الأمر .. هذا النوم العميق كل ليلـة هو الذى لم يكن ممن يجيدون النوم قط ، ثم الأقراص التى مـا انفكت تنقص فى الزجاجـة فـى الحمـام .. عمليـة حسابية بسيطة دلتـه علـى الحقيقة .. (كلاريسا) تخدره كل ليلة ولكن ما السبب ؟

هذه تحركات من هو مزمع على الخروج .. ولكن لأين ؟

هكذا ظل يحبس انفعالاته ويتنفس بعمق وهدوء ..

إلى أن سمع الباب يفتح ..

عندها وثب من الفراش وجلس يفكر .. من العسير أن يلحق بها على الأرجح .. إنها أخف منه وتتحرك برشاقة .. من الجلى أنه لن يجدهـا فـى الظـلام .. سينتظر هنـا حتـى تعود .. ولسوف يطلب منها تفسيرًا ..

(كلاريسا) ؟ الرقيقة الحسناء ؟

كان يجب أن يتوقع هذا .. لم يكن حظـه حسنًا قط لهذه الدرجة من قبل .. كان هذا أجمل من أن يكون حقيقة ..

★ ★ ★

فرغ المأمور من فحص الجثة ..

ثم جفف عرقه ودار ليجلس علـى أول منضدة قابلهـا .. إنه فى موقف عسير لكنه لن يعترف بهذا أبدًا ..

قال وهو ينظر إلى الشرشف كأن أحداثًا مهمة تدور عليه :

ـ « ماذا شربتِ يا (باتى) ؟ »

قالت الساقية التى تمالكت نفسها أخيرًا :

ـ « قهوة .. »

ـ « وهل بدر منها شىء غريب ؟ »

قال أحد الرجلين اللذين كانا فى المكان واللذين رأيا كل شىء :

ـ « شىء غريب ؟ لم أرَ قط فتاة أغرب أطوارًا من هذه .. »

قال (شوارتز) فى هدوء :

ـ « لقد عرضت الزواج على كل رجل فى هذه الكافتيريا .. خلال خمس دقائق ! »

نظر المأمور للجثة التى ظلت فى وضعها السابق علـى المنضدة .. وإن كانت عينـاها مفتوحتين تحدقان فى لا شـىء .. الجمال النائم .. هذا ما جال بذهنى وقتها .. أو (الموت يليق بها) وهو عنوان فيلم أمريكى ستمعته بعد هذه الأحـداث

بأعوام .. هذا جمال خلق ليموت .. ومع الموت يصير فى أفضل حالاته ..

قال بصوت متعب :

- « (ستيف) .. هلا فتشت حقيبتها ؟ »

اتجه الفتى المتبختر يعبث فى حقيبة الفتاة ثم غمغم :

- « لا أوراق .. لا رخصة قيادة .. »

كنا نعرف هذا لأن البحث خارج الكافتيريا لم يجد أية سيارة لا نعرف صاحبها .. هذه الفتاة جاءت من مكان ما راجلة ..

- « علبة أقراص استهلكت منها الربع .. »

ألقيت نظرة على المكتوب على العلبة .. إسبيرين فوار ..

قال المأمور فى رضا وقد ضرب المنضدة بقبضته :

- « هذا يوضح الأمور ! الفتاة مرت هنا فى سيارة شاب تعرفه .. تشاجرت معه .. هكذا دخلت هنا وراحت تتصرف بطريقة حمقاء .. ثم ابتلعت جرعة عالية من الإسبيرين وماتت .. »

لم يرق لى الأمر .. فتدخلت :

- « الإسبيرين لا يقتل فجأة .. ثم إننا لم نرها تبتلع أى شىء .. دعك من أن جرعة الإسبيرين القاتلة عالية جدًا تقترب من قرص لكل كيلوجرام .. أى إنه كان عليها أن تبتلع نحو خمسين قرصًا .. بهذا كنت ستجد العلبة فارغة .. »

ثم تذكرت أنهم يفكرون بالرطل هنا فقلت :

- « هذا لو كان وزنها حوالى ١١٠ أرطال .. يبدو أن هذا معقول .. »

نظر لى فى كراهية .. إنه يكره من يعترض على كلامه .. دعك من أن هذا يتعب عقله لأن عليه البحث عن جواب آخر ..

قال فى ضيق :

- « هذه الوفاة المفاجئة لم تحدث بسبب الشيخوخة .. »

- « هناك سموم قليلة جدًا تسبب الموت بهذه السرعة لو أخذت بالفم .. لا أعتقد أن الفتاة كان تحشو ضرسًا بالسيانيد لتكسره عند القبض عليها كما يحدث فى قصص الجاسوسية .. فى هذه الحالة يمكنها أن تموت فجأة لكنك كنت ستشم رائحة اللوز المر .. »

- « إذن كيف ماتت ؟ »

ببرود قلت :

ـ « لا أحد يعرف .. فقط يستطيع التشريح أن يخبرك .. »

ساد الصمت .. كأنه فيلم سينمائى اجتمع فيه عباقرة المونتاج ليعطوا تأثير التوتر .. دقات أنامل المأمور على المنضدة .. خطوات مساعده .. وجه الجثة .. العرق على وجه المأمور .. عينا (باتريشيا) .. قبضة (هارى) .. صوت (بانج بانج) القادم من لا مكان .. دقات الساعة .. (Isenstein) المخرج السوفييتى العظيم خبير المونتاج ما كان ليحلم بتقطيع أقوى من هذا ..

فجأة قطع السياق أن صاح المأمور فى عصبية :

ـ « ما صوت الدق هذا ؟ »

لو كنا فى مصر لاقترحت أنهم يصنعون (الكفتة) ، لكنى اكتفيت بأن قلت :

ـ « سيدى .. هذا الصوت مستمر منذ جئت أنا هنا .. يصعب أن أصدق أنك لم تسمعه إلا الآن .. »

قال (شوارتز) :

ـ « بل منذ جئت أنا .. »

لكنى كنت أعرف أن أشياء كهذه تحدث .. عندما يستمر الصوت طيلة الوقت وبلا انقطاع فإن وعيك يتجاهله .. نحن لا نشعر بدقات الساعة المعلقة على الجدار إلا عندما تتوقف .. عندها نشعر بحيرة وارتباك ونتساءل عن كنه الصوت الذى صمت .. هل كان هناك صوت ؟ ماذا كان ؟ ولماذا صمت ؟

نظر المأمور لمساعده متسائلا فقال هذا بلهجة من أدى عمله جيدًا :

ـ « لم نعرف مصدرها .. تأتى من مكان ما فى الجبل .. »

هز المأمور رأسه كأنما يفسر هذا كل شىء .. ثم نهض متعبًا وقال للمساعد :

ـ « تأكدوا من نقل هذه إلى بيت الجنازات .. سوف يفحصها رجال (فينكس) بأنفسهم .. »

ثم دس يديه فى جيبه وبصق على الأرض وغمغم :

ـ « ماذا يحدث فى هذه البلدة ؟ بحق السماء ماذا يحدث هنا؟ »

* * *

-6-

لم تكن الأخاديد التى يطلقون عليها مخالب الشيطان كما عرفها ..

كان (بيلى) يجتازها بسهولة كما اعتاد لكنه تعثر عندما توغل فيها أكثر .. وأدرك أنها مسدودة ..

راح يتحسسها بأنامله .. بالفعل .. هناك جدران تسد أكثر هذه الأخاديد .. جدران بارتفاع قامة الرجل العادى .. بناء شديد التعقيد يمتد لعدة أمتار ..

راح يحاول أن يقتحم هذه الجدران .. إنها هشة .. أقرب فى ملمسها إلى الورق المقوى .. ورق رمادى تم بناؤه بشكل معقد .. هناك غرفة تقود إلى أخرى .. وأخرى تقود إلى أخرى ..

ما هذا الشىء بالضبط ؟ من الذى يضيع وقته فى بناء بيوت من ورق مقوى فى هذا المكان ؟

أصابه الذعر .. إنها الكلوستروفوبيا التى تشعر بها وأنت تزيح جدارًا لتجد خلفه آخر .. راح يمزق ما استطاع

تمزيقه .. لا بد أنه احتاج إلى عشر دقائق حتى يخرج من هذه الممرات المتشابكة المعقدة .. وبالطبع تم هذا بطريقة التمزيق .. فلو اعتمد على الزحف فى هذه المتاهة لظل هناك إلى يوم يبعثون ..

فى النهاية وجد نفسه خارج أحد هذه الجدران الورقية .. وكان يركع على ركبتيه فى قاع الأخدود ..

فى اللحظة التالية صرخ هلعًا إذا تمسك به أحدهم من الخلف ..

سقط على الأرض فشعر بالجسد يسقط فوقه ..

التقط حجرًا وتأهب كى يضرب هذا المعتدى ، لكنه رأى البذلة السوداء والياقة البيضاء .. وسمع صوتًا مميزًا يقول :

- « أنت (بيلى) .. ماذا تفعل هنا ؟ »

إنه القس ..

لكنه كان فى حال هستيرية جعلته لا يثق بأى إنسان على الإطلاق .. لقد وثب وثبتين حتى خرج من الأخدود .. وأثار دهشته أنه الآن يرى مدى امتداد وتعقيد تلك الشبكة من الحجرات الورقية .. لها تنسيق مسدس لا بأس به لكنه

ليس ذلك الشكل المميز لأعشاش النحل .. إنـه بالتأكيد أقل إتقانا ..

قال القس وهو فى قاع الأخدود :

ـ « لا تخف يا (بيلى) . . . لا تخف .. أنا سقطت هنا مثلك .. »

صاح الفتى فى عصبية :

ـ « وماذا جاء بك هنا ؟ »

ـ « ربما كان على أن أسالك السؤال ذاته .. »

ساد الصمت هنيهة ثم أردف القس وهو يبتسم ابتسامة ذات معنى :

ـ « أنا أعرفك وأثق بك .. سأجرب أن أثق بك ثانيـة .. دعنى أخمن .. أنت هنا للغرض ذاته .. »

صمت (بيلى) وقد أدرك أنهما متفاهمان ..

قال القس :

ـ « جئت لتلقى نظرة .. هه ؟ »

قال (بيلى) وهو يستجمع أنفاسه :

ـ « نعم .. نحن نعرف سرهم منذ زمن .. أعتقد أن (جيمـى) و(هارلسـون) هلكـا لأنهمـا عرفـا أكـثر مـن اللازم .. (ساندرا) صممت على أن تذهب وحدها .. أحاول اللحاق بها قبل أن .. »

قال القس وهو يمد له يده كى ينزل إلى الأخدود ثانية :

ـ « أعرف هذا الطريق المختصر منذ طفولتـى .. إننـى أرتاب بهذه الطقوس .. لا أستطيع أن أعطى تفاصيل .. لكن الطريقة الوحيدة للاطمئنـان هـى أن أرى بنفسـى .. لا أستطيع إبلاغ المأمور بشىء لأن ما عرفته عرفته تحت الاعتراف .. »

ـ « إن المأمور أغبى من أن يصدق على كل حال .. »

فجأة صمت القس ولمعت عويناته فى ضوء القمر فبدا منظرها مخيفًا ..

فتح (بيلى) فاه ليتكلم لكن القس وضع أصبعه على شفته ..

تشومب .. تشومب !

الصوت آت من هناك .. من الناحية الأخرى لهذا الأخدود ..

وفى صمت وخفة زحف القس زحفًا ومن خلفه (بيلى) .. كانا يقتربان من مصدر الصوت ..

على الناحية الأخرى كان هناك جذع شجرة عتيق متعفن .. يرقد فى ضوء القمر كأنه أفعى أسطورية عملاقة .. وفوق الجذع كان يرقد رجل شعرا بأنهما يعرفانه جيدًا ..

(توم لين) .. إنه من عمال المنجم .. رجل قصير القامة أصلع متين البنيان ..

يرقد فوق الجذع وقد احتضنه بكلتا يديه .. أما الغريب فهو أنه يقضم الخشب بلا توقف وبنشاط غير مسبوق .. تشومب تشومب !!

كان يأكل بلا كلل .. بدا منظره فى ضوء القمر كأنما هو آت من كابوس .. لا يمكن أن يكون هذا حقيقيًا .. دقائق مرت على هذا المشهد ثم إنه نهض مترنحًا ..

وراح يبصق ما مضغه على الأرض .. يمكنك أن ترى أنها عجينة بيضاء متجانسة .. عجينة سخية لا تصدق أبدًا أنها كانت فى فمه ..

أما عن القس والفتى فإننى أترك لخيالك تصور ما شعرا به وقتها .. صرخة أوشكت أن تصدر من الفتى فكتم القس فمه بيده ..

ليس هذا وقت الصراخ .. بالله عليك ليس هذا وقت الصراخ ..

ينهض (توم لين) من حيث كان .. يقف فى ضوء القمر .. يبدو أنه يتثاءب ..

وفجأة يهجم !

لقد رآنا !!!

كيف رآهما ؟ لا أعرف .. المهم أنه وثب إلى حيث كانا فى الأخدود .. وبسرعة البرق رأياه ينقض عليهما .. قال القس شيئًا . وفى اللحظة التالية مر الرجل بجواره .. وسرعان ما توارى وسط الأخاديد المظلمة .. .

هتف (بيلى) وهو يثب خارج الأخدود :

ـ « فلنفر يا سيدى .. لقد هرب .. يبدو أنه كان مذعورًا أكثر منا !! »

قال القس شيئًا .. وأشار لعنقه ..

نظر (بيلى) إلى الرجل .. وبرغم ضوء القمر الذى يجعل كل شىء مزرقًا فإنه أدرك أن القس أزرق اللون .. كان يشير لعنقه وقد بدا عليه ذعر لا يصدق .. لسانه برز من فمه .. وعيناه اتسعتا خلف زجاج النظارة .. ثم هوى على الأرض .. .

كان هناك ثقب صغير فى عنقه ..

وأدرك (بيلى) أن الأمر انتهى ..

انتهى بسرعة البرق ..

★ ★ ★

(إليانور رجبى) ماتت فى الكنيسة ودفنت ومعها دفن اسمها ..

الأب (ماكنزى) ينفض الغبار عن يديه وهو يفارق قبرها ..

فلم يتم خلاص أحد . .

★ ★ ★

قال (رتشاردسون) لزوجته :

ـ « أريد تفسيرًا .. »

كانت الآن تقف أمام باب الدار فى ضوء المصباح .. مبعثرة الشعر وثمة هالات سود تحت عينيها .. كان آخر وجه تتمنى أن تقابله هو وجه زوجها بالذات .. واضح أنه لم يبتلع المخدر ولم يبتلع الحيلة ..

دخلت من دون أن تنطق فمشى وراءها واستوقفها فى عصبية :

ـ « أين كنت ؟ »

ـ « هذا شأنى الخاص .. »

ـ « ليست هذه هى الإجابة الصحيحة .. »

لكنها اتجهت إلى غرفة النوم لتبدل ثيابها وأغلقت الباب فى وجهه .. دق بعنف أكثر وهتف :

ـ « أنت لا تتكلمين .. »

ـ « لأنى لا أسمع الكلام الصاخب .. »

- « نحن لا نتحدث عن محاولة دكتاتورية للسيطرة على حياتك .. نحن نتحدث عن تخديرى كل ليلة .. يمكن أن أثبت هذا بتحليل الدم .. هذه تهمة فيدرالية وليست مجرد خلاف في وجهات النظر بين زوجين .. »

مع صوت حفيف الثياب جاء صوتها من وراء الباب يقول فى عصبية :

- « إن الطلاق خير تسوية .. »

ماذا يحدث ؟ منذ متى ترد بهذه الحدة ، ومنذ متى تطلب الطلاق ؟ هناك آخر بلا شك .. دعك من أنها لم تغلق الباب فى وجهه قط ..

فى جنون مد يده ليدير المقبض .. ثم دفع الباب بكتفه ليدخل .. وفى نيته أن يبدأ النقاش بأن يوسعها ضربًا .. بعد هذا يمكن الكلام بنوع من العقلانية ..

انفتح الباب ..

فصرخت وتراجعت للوراء ..

لكن صرخته كانت أعلى لأن ما رآه كان مخيفًا ..

★ ★ ★

العجوز (سكروج) يجلس فى الخلاء كعادته الليلية ..

كاتى ديد .. كاتى ديد .. كاتى ديد .. كاتى ديد .. كاتى ديد .. كاتى ديد ..

ثرثارة جدًا هذه الحشرات .. لا تكف عن النميمة بخصوص فى هذه السن ..

كنت أنا واقفًا أرمق كل شىء من عل .. تلك النافذة التى فى نهاية الممر والتى صارت مكانى المختار .. بعد قليل أنام لكن من يضمن لى ألا تزورنى بقة القبلات ثانية ؟ الفكرة ذاتها تفعمنى رعبًا ..

أسمع الحوار خافتًا من بعيد ..

الفتاة التى يدعونها (باتى) وأصر على أن أدعوها (باتريشيا) تمشى فى تؤدة .. لقد أغلقت المتجر ويبدو أنها ستعود لدارها .. تتجه نحوه وتناوله المفتاح ..

عندما تحتاج المحطة إلى عمل ليلى فإن المكسيكى ينزل ليساعد ..

أسمع عبارات من بعيد تحملها الريح إلى أذنى :

ـ « لم أتقاض أجرى هذا الأسبوع .. »

ـ « لا يوجد مال .. إن الأحوال سيئة .. دعك من هذه الفتاة التى ماتت .. سوف تنحدر الأعمال إلى الحضيض .. »

قالت فى تحد :

ـ « لكن هناك الغرباء المقيمين فى الفندق .. دعك من أن عدد السيارات كان هائلاً هذا الأسبوع .. لقد باع المتجر بعض الدمى كذلك .. »

البدين لم يبدل من جلسته .. فقط قال دون أن ينظر لها :

ـ « ليتك تعرفين أى ثقوب تسدها هذه البنسات فى الحفرة الهائلة التى أجلس عليها .. ثم إن الغرباء هنا لمصلحتك أنت ! »

فى عصبية وتنمر هتفت :

ـ « ماذا تعنى ؟ »

قال بلهجة واضحة :

ـ « هذا الأشقر الوسيم القادم من (فلوريدا) وعالم الحشرات .. هل تحسبين أننى غافل عنك ؟ أنت تنعمين بوقتك ثم تطالبين بالأجر ! »

لا أعرف تعبيرات وجهها لكن لا بد أنها مخيفة .. فقط سمعتها تقول :

ـ « لو سمعتك تتكلم بهذه اللهجة ثانية فلسوف تختصر الساعات الباقية من عمرك ! »

لا بد أنه شعر ببعض الفزع .. لأن لهجته صارت أهدأ :

ـ « ليس معى مال .. يجب أن تفهمى هذا .. »

ـ « وماذا ستفعل بكل ما تكنزه ؟ إنه لن يذهب معك إلى القبر .. »

ـ « ربما أفكر فى شىء كهذا كما كان الفراعنة يفعلون .. والآن أرجو أن ترحلى لأن وجودك يفسد تأملى .. »

نظرت له طويلاً .. أعتقد أنها فعلت هذا .. ثم عادت إلى الموتيل بخطوات ثابتة ..

هذه فتاة خطرة لكن لا أعتقد أنها من الطراز الذى يقتل .. إن القتل عند الانفعال يحتاج إلى شخص حار

الدماء .. بالنسبة لـ (هارى) أوشك أن أرى صورته فى صفحة الحوادث فى أية جريدة وهو يضع لافتة الرقم على صدره ، لكن هذه لا .. سوف تنصب مكيدة باردة قاسية ..

لماذا لا تعطيها حقها يا أخى ؟؟ ماذا ستفعل بكل هذا المال ؟ عندما تشيخ فلا ترى الجمال ولا تسمعه ولا تلمسه ولا تمشى فيه فما جدوى المال ؟

أغلقت النافذة وعدت إلى غرفتى .. تأكدت من أن النوافذ مغلقة .. لا أعرف حجم بقة القبلات هذه لكنى أرجح أنها ضخمة ..

جلست أكتب خطابًا من تلك الخطابات حكيت فيه ما حدث .. ثم اتجهت إلى حوض الحمام وأحرقته حرقًا .. ووقفت أرمق الدخان خبيث الرائحة .. متى تظهرين لأرحل من هنا ؟

مددت يدى تحت الوسادة فوجدت خطابًا من تلك الخطابات التى أتلقاها بانتظام :

« ادخل المنجم ! »

كلمة واحدة لا أعرف لم تشير .. لماذا أدخل المنجم ؟

كنت أفكر فى هذا عندما غصت تحت الغطاء وغبت فى نعاس عميق ..

★ ★ ★

فقط لأسمع الصراخ فى الثالثة صباحًا ..

كان قادمًا من الطابق السفلى ..

خرجت فلم أجد أحدا فى الممر .. نزلت إلى الطابق الأسفل حيث الكافتيريا / المطعم / الحانة .. فوجدت هناك زحامًا يوحى بكارثة ..

(شوارتز) هناك والمأمور و(هارى) و(باتريشيا) والموظف المكسيكى الصموت .. كانوا هناك يتكلمون جميعًا بصوت عال .. وفى الوسط رأيت ذلك الفتى النحيل ذا العوينات والنمش ..

للمرة الأولى كان هذا لقائى مع (بيلى) ..

ـ « أنا متأكد ! لقد تركته هناك ! »

وسمعت كلمة القس عدة مرات ..

كان دورى فى الموضوع هو أن أخبرتهم أن الفتى يوشك على الإصابة بانهيار عصبى ، فيصبروا عليه بعض الوقت ..

أمقت هذا الحماس مع المصابين بهزة عصبية كأنهم يعقدون مؤتمرًا صحفيًا .. حتى توقعت أن يقول الفتى : لا تعليق .. لا مزيد من الأسئلة من فضلكم .. .

فليجلس أولاً ثم يتكلم .. صعدت لغرفتى وبحثت عن بعض الأقراص المهدئه ثم عدت له وطلبت منه أن يبتلعها ..

كان يحكى قصة عجيبة عن القس الذى هاجمه شخص ما فقتله .. يبدو أن هذا حدث فى منطقة يطلقون عليها (مخالب الشيطان) .. من هنا سمعت القصة كلها من وجهة نظر (بيلى) ..

إن هذه القصة جزء آخر من مسلسل الرعب الذى يجتاح هذه البلدة والذى لا يوجد منطق واحد يفسره ..

لكننا فهمنا عدة أشياء :

أولاً : القس كان يعرف أكثر منا جميعًا .. لقد سبق الفتى بخطوة ..

ثانيًا : الشىء الشرير الذى يحدث يبدأ من تجمع هؤلاء الأشخاص غريبى الأطوار قرب المنجم ..

قال المأمور وهو يتحسس مسدسه :

- « الأمر واضح .. سوف أذهب إلى هناك وأنسف هؤلاء الأوغاد .. لقد أعيانى البحث عن مكان تجمعهم .. لكن يبدو أننى آخر من يعلم .. إن لى سبعة عشر عامًا كمأمور لكنى آخر من يعلم .. »

قال (شوارتز) وهو يدس يديه فى جيبه :

- « تريد رأيى ؟ إن هؤلاء الرجال من (فينكس) قادمون غدًا .. أنت تحتاج لتعزيزات لأن المشكلة أكبر مما نتصوره .. عليك الليلة أن تحاول استرداد جثة القس .. لا تحاول التورط فيما هو أكثر .. »

لسان العقل يتكلم .. فليصمت البلهاء .. ويجب أن أعترف أننا كنا جميعًا بلهاء باستثناء (شوارتز) .. . .

بدا على المأمور أنه اقتنع .. هذه ضربة لا شك فيها لكبريائه أن يقتنع برأى أحد لكن يبدو أنه لا مناص من ذلك ..

نهض وأشار لمساعده كى يلحق به .. ثم نظر إلى الفتى .. فرفعت يدى منذرًا .. لا .. لن أسمح له بصفتى الطبيب الوحيد هنا .. لن يأخذه معه للبحث عن جثة القس ..

هكذا قرر أن يصدع بالأمر واتجه إلى الباب ..

وبعد قليل سمعنا السيارة تبتعد ..

قلت للفتاة (باتريشيا) :

ـ « من الواضح أن صاحب الموتيل لا يتدخل كثيرًا .. »

ضحكت تلك الضحكة المشرقة المفتعلة التى تزول خلال ثانية ، وقالت :

ـ « آه .. نعم .. ها ها .. إنه مسن جدًا ويترك لى كل شىء ما عدا المال .. »

وتذكرت الموقف الذى كان منذ ساعتين تقريبًا .. وتذكرت العجوز جالسًا وحده يصغى لما فعلته (كاتى) ..

لا أعرف لماذا قررت أن أخرج إلى الخلاء .. مشيت ببطء ومعى مشى (هارى) .. ومن بعيد نرى ضوء سيارة المأمور إذ تبتعد فى الطريق ..

لا صوت إلا صوت النطاط الذى يعتبر نفسه ترمومترًا يخبرك بدرجة الحرارة .. مع الـ (بونج بانج) والرائحة الكريهة التى تعاودك كلما خرجت ..

هنا جوار مضخة البترول كان يجلس العجوز .. لكنى أرى الآن أن مقعده مقلوب ..

دنوت أكثر .. وعلى ضوء القمر استطعت أن أرى تلك العلامات ..

آثار جر واضحة على التراب .. جر .. ومقاومة .. ثمة جسم ثقيل لا شك فى هذا .. والآثار تتجه بعيدًا لتعبر الطريق وهكذا اختفت تمامًا ..

على الأرض علبة كولا سقطت من يد حاملها وهى مليئة لأن محتواها انسكب على الأرض ..

نظرت لـ (هارى) فنظر لى نظرة غامضة ..

ما معنى هذا ؟

★ ★ ★

-7-

هذا هو الجزء الممتع فى الموضوع ..

كأن هذه الأشياء تروق للمأمور بلا شك .. البحث على ضوء الكشاف فى منطقة الأخاديد .. يبدو له هذا عمل شرطة فعلاً .. كان مساعده الأبله قد ذهب لمكان آخر .. والمأمور يضع يده على مقبض مسدسه ويمسح الحفر المتجاورة بالكشاف ..

سبعة عشر عامًا من الخبرة .. لا شك فى هذا .. هذه الأعوام لها مقابل .. إنه يعرف ما يفعله .. لا يحتاج لهؤلاء الأوغاد من (فينكس) .. أولئك المرفهين الذين أدمنوا الجلوس على مؤخراتهم السمينة فى الغرف المكيفة .. يموتون بالكوليستيرول والسمنة .. لكن إلى أن يموتوا يتسلون على واحد مثله .. شرطى ريفى فى بلدة على حدود المكسيك .. لا بد أنه حمار أو أحمق ..

كان يلهث الآن من الجهد .. والعرق يبلل حاجبيه ..

لسعة الزنبور ؟ ذلك العالم قال إنهم يعرفون لسعة الزنبور .. بعض الآباء يفعلون هذا .. هو يعرف أفضل من أى واحد آخر لأنه فعلها مع ابنه مرارًا .. ذات مرة دس لزوجته سحلية حية فى قميصها وراح يضحك بينما هى

تتلوى وتصرخ .. إنه يعرف أفضل الطرق لفرض إرادته .. بعض الرجال يلوم أسرته .. البعض يضرب .. لكنه يعرف أفضل الطرق للسيطرة ..

تقول امرأته إنه سادى مريض .. ربما .. كان يسمع أن رجال الشرطة الفظين فى عملهم يكونون وديعين كالحملان فى بيوتهم .. لكنه استثناء .. لقد اعتاد أن يحمل العنف معه للبيت .. فإذا لم يجد ما يكفيه فى العمل بحث عنه بين أفراد أسرته ..

لماذا لا يحق له بعض العنف ؟ القليل منه ليحتفظ بسلامه النفسى ؟ مهنة كهذه وراتب جدير بالفئران .. والعمر يمضى بلا أمل فى الأفق .. فلماذا يلومونه على بعض العنف الصحى ؟

أخيرًا يرى هذه الأشياء ..

إن الفتى الأحمق لم يكن أحمق ..

بالفعل هذه بيوت من الورق المقوى .. تبدو كمسدسات تم إلصاقها ببعضها .. من فعل هذا ولأى غرض؟

يواصل البحث .. لا بد أن جثة القس قريبة جدًا .. سوف يجدها ..

انحنى أكثر ليتفحص أحد الأخاديد عن كثب ..

ولا يدرى ما حدث .. ولا كيف شعر بتلك الوخزة القوية تخترق فخذه ..

أطلق سبة وركع على ركبته .. هناك من يقف بجواره الآن ..

مد يده ليمسك بالمسدس .. سبعة عشر عامًا من الخبرة .. لكنه وجد يده تهتز .. ذلك التنميل الغريب يسرى فيها اللعنة . . إنه عاجز بالفعل عن تحريك أى طرف .. إنه ..

وبدأ اللعاب يسيل من فمه الذى عجز عن غلقه ..

لكنى واع .. أنا واع .. لم أفقد وعيى .. أنا واع ..

★ ★ ★

وقفنا مذهولين ننظر إلى تلك المساحة الشاسعة الممتدة أمامنا ..

لقد قادتنا محاولتنا لاقتفاء الأثر إلى عبور الطريق .. وهناك وسط الجبال وجدنا آثار الجر من جديد .. كان اقتفاؤها عسيرًا فى الظلام لكننا استخدمنا الكشافات ..

طبعًا تركنا (باتريشيا) والفتى (بيلى) فى الموتيل .. أنا لا أثق بها وأعتقد أنها مسئولة عن اختفاء العجوز . آخر مرة شوهد فيها كانت تتشاجر معه ..

« إنها باردة جدًا تعطيك الانطباع بأنها قد تجز رقبتك بالمقص لو دفع لها أحدهم ربع دولار .. »

كنا الآن نولى وجهنا شطر الحدود المكسيكية .. سلسلة الجبال الوعرة سوف تبدأ بعد عدة أميال .. لكننا الآن نرى منخفضًا غير عميق نسلط الكشافات عليه فنرى ..

نرى تلك المسدسات الشمعية العملاقة المتراصة ..

خلايا نحل .. لا شك فى هذا ..

ونظرت للوراء إلى (شوارتز) فنظر لى بذات النظرة ..

(بانج بانج) ..

صوت الدق يتعالى ..

الرائحة الكريهة تتزايد ..

كاتى ديد .. كاتى ديد .. كاتى ديد .. كاتى ديد .. كاتى ديد .. كاتى ديد ..

(كاتى) فعلت ماذا ؟ يبدو أن حرارة الجو تؤدى عمل الرقابة من جديد ..

شمع .. شمع .. شمع ..

وفجأة بدأت أفهم ..

(شوارتز) هو الآخر فهم ..

★ ★ ★

لا يذكر المأمور إلا أنه كان غارقًا فى الماء .. ثمة بركة ماء سقط فيها ..

عاجزًا عن الحركة لكنه مذعور .. لا يستطيع الكلام أو الصراخ ..

هناك شىء قوى ينتزعه من الماء .. يجره بعيدًا بلا رفق إلى الخارج ، ثم يشعر بأنه ينحدر من فوق مرتفع .. يسقط كأنما هو صخرة ألقيت من أعلى .. إنه الآن راقد فى قاع أخدود عميق .. يرى السماء بنجومها من فوقه .. منذ متى كان القمر بهذا السطوع ؟

ثمة شىء يسقط فوق صدره .

شىء يشبه البيضة .. لكنها لينة ..

ما هذا ؟

هنا بدأ يرى ذلك الشىء العملاق - فى وضع السلويت لأنه كان عكس ضوء القمر - يتقدم نحوه نازلا الأخدود .. الآن يفهم ..

لكن الفهم جاء متأخرا جدًا ..

★ ★ ★

قال لى (شوارتز) وهو يرتجف ، محاولاً التصويب على لفافة التبغ فى فمه :

- « القصة واضحة يا د. (إسماعيل) .. »

- « بدأت أرى هذا معك .. »

قال (هارى) فى غيظ :

- « أنتما عبقريان .. فهل يوجد مكان لبطيئى الفهم مثلى ؟ »

قال (شوارتز) وهو ينظر إلى البلدة الغافية فى الظلام :

- « سكان هذه البلدة يتحولون إلى حشرات ! »

★ ★ ★

الجزء الثالث

الكينونة

١ ـ لا تثق فى أية أصوات غريبة تسمعها ليلاً .. لا تفترض أنها طبيعية ..

٢ ـ مقولة (يحدث للآخرين فقط) انتهى عهدها .. ربما كان من الأفضل أن تتبنى مقولة (يحدث لى دون سواى) ..

٣ ـ لا تثق فى الصداقات القديمة أكثر من اللازم .

٤ ـ لا تقع فى حب جديد ..

٥ ـ الرائحة الكريهة موجودة هناك لسبب مهم .. لا تنس هذا ..

٦ ـ لا تثق فى زوجة يموت زوجها ليلة الزفاف ..

٧ ـ عداواتك القديمة قد تطفو على السطح .. تذكر أين أنت ومن أنت ..

-1-

يقول (شوارتز) :

ـ « لا تنظر للحشرات بتعال أبدًا .. يرى العلماء أنها وجدت على الأرض منذ ٢٥٠ مليون سنة .. هناك ٧٠٠ ألف نوع منها حتى اليوم .. ويعتقد العلماء أن أنواعها ستبلغ عشرة ملايين فقط لو تقدمت طرقنا فى البحث أكثر .. لقد وجدوا الصراصير داخل المفاعلات النووية وفى القطب الشمالى وداخل الصمامات الإلكترونية .. هذه الكائنات قوية جدًا وقد جاءت لتبقى .. »

★ ★ ★

يقول (شوارتز) :

ـ « لا تنظر للحشرات بتعال أبدًا .. إنها كائنات معدة بدقة إلهية مذهلة لحياة شديدة القسوة .. ويبدو أنها ستعيش بعد أن يفنينا وباء أو حرب نووية .. لقد جابت الديناصورات الأرض بضخامتها المروعة ثم اندثرت .. وجاءت الثدييات .. لكن الحشرات ظلت كما هى .. بارعة جدًا .. خارقة القوة .. متكيفة بشكل مذهل لبيئتها .. »

★ ★ ★

قال (هارى) فى عصبية وهو يبدو موشكًا على تحطيم رءوسنا لسبب لا أعرفه :

ـ « أنتما مجنونان تمامًا .. عندما يحدث قتل عليك أن تبحث عن قاتل .. لا أن تعطى آلاف التفسيرات الطفولية .. رجلان ناضجان مثلكما ! »

بدا كأحد أبطال أفلام الخمسينيات أكثر من أى وقت آخر .. الشعر الأشقر والذقن المشقوقة والصدر العريض والانفعال الزائد .. لكن الوضع فريد هنا .. بطل الفيلم لا يفهم شيئًا ..

نظرت إلى الوراء لأتأكد من أن الفتى و(باتريشيا) لم يقتفيا أثرنا .. أنا لا أثق فى الفتاة .. بل لا أثق فى أحد على الإطلاق .. لكنى على الأقل أرجح أن هذين اللذين يقفان معى مضمونان لفترة أخرى ..

لم أر ورائى إلا الليل .. الطريق السريع الخالى .. أضواء محطة البنزين الغافية .. تلك الحشرات المضيئة ..

قال (شوارتز) وهو يلهث انفعالا :

ـ « لو فكرت فى الأمر بلا تعصب لفهمت .. لا أعنى أنهم صاروا حشرات كاملة لكنهم بالتأكيد قطعوا شوطًا لا بأس به .. بيوت من شمع وبيوت من ورق .. ماذا عن تلك الرائحة الكريهة المسيطرة على البلدة ؟ الآن أتذكر مصدرها .. هناك بق يصدر رائحة مماثلة لحماية نفسه .. ماذا عن نطاط الحقل الذى لا يهمد طيلة الليل ؟ وماذا عن كل الأضواء التى تراها فى الأفق ؟ حاملات المشاعل أو الذباب المضىء .. »

قلت أنا بدورى :

ـ « ودقات الطبول المعدنية .. أعتقد أن نوعًا من الخنافس يحدث هذا الصوت .. »

تدخل (شوارتز) مصححًا :

ـ « بق .. بق (السيكادا) .. يطلقون عليه اسم (قارع الطبول) لأنه يحرك ذلك الغشاء المستدير تحت أجنحته فيحدث ذلك الصوت المعدنى .. هناك ولايات فى الجنوب تضطر لإغلاق المدارس فى مواسم معينة بسبب ارتفاع صوت هذه الدقات .. »

تدخل (هارى) قائلا :

ـ « هل ترى ؟ نحن فى الجنوب فعلاً .. هل هناك ما هو جنوبى أكثر من (أريزونا) ؟ ما نتحدث عنه هو ظاهرة ولاية تعج بالحشرات .. لا يجب أن يدهشنا هذا .. هناك مواضع فى إفريقيا جعلها النمل محرمة على البشر لكن هذا لا يعنى أن الناس يتحولون لنمل ! »

قلت وأنا أتحسس شفتى :

ـ « بق القبلات الذى يتسلل ليلاً .. . »

عاد (هارى) يقول فى إصرار :

ـ « هذا لا يدل على شىء .. الحشرات تلدغ فى كل حين .. »

قال (شوارتز) وهو يشعل لفافة تبغ :

ـ « وماذا عن الجثث التى يتعرض أصحابها للتدويد وهم أحياء .. وماذا عن أسباب الوفاة ؟ وماذا عن الجثة التى تم امتصاص الدم من عنقها ؟ »

ـ « حقًا ؟ ماذا عنها ؟ »

ضحك ونظر لى ثم أردف :

ـ « البعوض يفعل ذلك .. تخيل بعوضة بحجمك .. هناك البق والبراغيث أيضًا .. »

ـ « ليس لديك دليل على أى شىء من هذا الهراء .. »

ـ « سأعطيك الدليل .. الجثة التى تم التهام الرأس والعنق فيها .. نحن لم نر أسلوب قتل بهذه الشناعة من قبل .. إنها جثة ذكر .. هذا الفتى (هارلسون) كان فى لقاء عاطفى مع فتاة لطيفة .. هذا هو ما أرجحه .. والآن وسط اللقاء تدير الفتاة الرقيقة رأسها لتلتهم رأس الفتى .. **Praying Mantis** تلك الحشرة المفترسة التى حسب الناس أنها تقف على قائمتيها الخلفيتين وتضم كفيها لأنها تصلى .. أنثى هذا النوع تلتهم الذكر بعد التزاوج .. أولاً تنتزع غدة معينة مسئولة عن الشعور بالألم . هكذا يمضى البائس إلى مصيره بلا ندم .. ثم تواصل التهامه بدءًا بالرأس على سبيل التغذية .. هذه الحشرة تلتهم كل ما يتحرك أمامها .. فى بعض بلدان الشرق الأقصى يربطونها بحبل للفراش كما يفعلون مع الكلاب ، لتحمى النائم من هجوم أية حشرة أثناء النوم ! إن هذا الجزء قد يفسر لنا مقتل الطيور والقطط .. »

وتأمل وجه (هارى) المذعور وأردف فى استمتاع :

ـ « إنها الحشرة الوحيدة القادرة على أن تبصر ما وراء كتفها .. وأن تمسح وجهها بيديها كالقط .. وتأكل من يدك كالكلب .. وتشرب الماء كالخيول ! »

ارتجفت للفكرة .. ثمة شىء رهيب فى هذا ..

قلت أنا مفكرًا :

ـ « وتلك الفتاة الرقيقة التى جاءت تبحث عن عريس .. قالت إنها مولودة اليوم فقط .. ثم تدخل الكافتيريا لتجلس جوار أكبر ضوء فيها .. اسمها (ماى) .. الآن أفكر فى شىء ما .. » :

قال (شوارتز) :

ـ « اسمها (مايو) .. ذبابة (مايو) . .. الذبابة التى لا تعيش أكثر من يوم واحد من شهر مايو .. تبحث عن الأضواء ثم تتزاوج .. وعندما يأتى المساء تموت فى صمت .. يوم واحد فقط هو كل حياتها .. لم يستطع أحد أن يفهم هذا .. وقد هلكت الفتاة أمام عيوننا بعدما انتهت حياتها هباء .. التشريح لن يجد أى شىء يمت للسموم فى

دمها .. لن يجدوا سببًا للوفاة فقط ماتت لأن أجلها انتهى .. من أين جاءت ؟ لن نعرف أبدًا .. »

هنا صاح (هارى) بانتصار :

ـ « نحن فى الخريف يا عزيزى .. هذا يهدم فرضيتك بالكامل »

ـ « لا تنس أننا فى الصيف الهندى .. وهو جو حار مخادع يأتى أحيانًا فى نهاية الخريف .. لقد رأينا بيض دود القز يفقس فى هذا الجو برغم إنه لا يفقس إلا ربيعًا .. أنا أعرف من خبرتى أن بعض ذباب مايو يظهر فى هذا الوقت »

ثم تذكر شيئًا فأضاف :

ـ « ثمة شىء لاحظته مع تلك الفتاة .. يبدو أنها سمة عامة فى نساء البلدة هذه الأيام .. أنهن جذابات جدًا .. إن لهن رائحة عطرية قوية .. الرجال يتصرفون معهن ببلاهة كأنهم تلاميذ مراهقون .. ألا يذكرنا هذا بالفيرمونات pheromone ؟ إناث الحشرات تفرز هذه الرائحة التى تجذب الذكور .. ولكم من مصيدة أعدها العلماء لذكور حشرة معينة عن طريق إطلاق هذه الرائحة .. فى إفريقيا تعد هذه من وسائل مكافحة ذبابة (تسى تسى) المعروفة »

هنا فقط فهمت .. ذلك الانجذاب المفاجئ الذى شعرت بـه نحو الفتاة (ماى) عندما دخلت الكافيتيريا .. لم أكن أبله .. كنت تحت تـأثير كيميائى شديد الكفـاءة .. ثمـة حقيقتـان هنـا : الحقيقة الأولى هى أنك يجب أن تقترب من عالم الحشرات أكثر لتفهم دقة وإعجاز الخلق ، وبلاهة من يحسبون هذا تم بالصدفة .. الحقيقة الثانية هى إننا فى مأزق بالغ التعقيد .. هذا العالم الغريب ينهال فوق رءوسنا ..

وألقى بقايا لفافة التبغ ونظر إلى الصحراء الخالية حيث يتناثر الظلام بالتساوى مـع صبـار (الساجوارو) المخيف .. تشعر بأن جيشًا كاملا من المكسيكيين يقترب منك فى الأفق ..

ثم نظر لـ (هارى) وقال باسمًا فى خبث :

ـ « أنت كنت أقرب ما يكون لتجربة من طراز آخر لكن لها طابعًا حشريًا واضحًا .. هل تتذكر ؟ »

قال (هارى) :

ـ « أنا ؟ بالطبع لا .. »

ـ « فى الحجز الذى قضيت فيه ليلتك .. رأيت ذلك الفتـى النحيل الذى يشبه تمامًا الفراش الذى ينام عليـه .. وأخـاه

الذى بدا لك ميتًا إلى حد لا يصدق .. هذه أساليب (العصـى الرحالة) التى تهوى التظاهر بالموت أو تتظاهر بأنها عصا لا يمكن أن تميزها عما حولها .. مجرد طريقة تماه بينيـة معروفة

كان يشعر بإثارة بالغة .. صحيح أن هـذا يعنـى كارثـة لا قبل لنـا بهـا ، لكنـه كـان مصممًـا علـى الاستمتاع باللحظة الحالية حتى إن كانت الأخيرة .

تدخلت بـدورى فـى الحديث شـاعرًا بـأن الحقـائق كلهـا تتداعى كاشفة عن وجهها الحقيقى :

ـ « البيوت الورقية التى حكى لنـا عنهـا (بيلـى) حيث قابل القس .. لا أعرف إن كنت ترى رأيى لكن هذا يذكرنـى بالزنابير ! »

هز (شوارتز) رأسه موافقًا :

ـ « الزنابير الاجتماعية .. نعم .. بالمناسبة : من هو مخترع الورق ؟ »

كان (هارى) قد تعود هذه الأسئلة .. الأسئلة التى لا بـد أن إجابتها غير ما تتوقع .. عندما يسألك أحدهم هل الطـن

أثقل أم الطنان تشعر بتردد وتتوجس من خدعة ما .. لا بد أن الطن أثقل .. لذا قال فى ضيق :

- « لا تقل لى إنها الزنابير .. »

- « هذا صحيح .. القصة الصينية تقول إن مخترع الورق (تساى لون Ts'ai Lun) استلهم اختراعه من الدبور أصفر الرأس الذى يمضغ الخشب ليصنع منه عجينة .. هذه العجينة يشكل منها بيوتًا من ورق تشبه بيوت النحل لكنها أقل دقة .. هذا يفسر لك المشهد المخيف الذى كان آخر ما رآه القس .. (توم لين) تحول إلى دبور آدمى يمضغ الخشب ويصنع منه الورق .. بعض هذه البيوت يبلغ درجة مذهلة من الإتقان .. ثمة نوع يدعى (غليون الهولندى) يبلغ حجمه قياسات مخيفة .. »

- « وهذا الدبور الآدمى انقض على القس ؟ »

- « كيف مات القس ؟ مات وهو يتحسس عنقه .. لقد تورمت حنجرته وانسدت .. الدبور لا يستقر قبل أن يلدغ كما تفعل النحلة ، لكنه يمرق جوارك بسرعة البرق ويسدد لك لدغة محكمة بزبانه .. لهذا لم يره الفتى ولا القس (توم لين) يفعل شيئًا .. يشبه الأمر قاذفة صاروخية تمر

بجوارك وبعد أن تبتعد فى الأفق تكتشف أنك تنزف وأن صاروخًا أصابك بإحكام .. »

هنا قررت أن أسأل بدورى :

- « ما معنى جر جسد العجوز (سكروج) ؟ »

قال (شوارتز) :

- « لا نعرف ما الذى جره .. لكن هذا سلوك شائع لدى الحشرات .. لا بد أنها أخذته إلى عشها لتأكله على مهل .. »

ارتجف (هارى) وارتجفت للفكرة .. لو كان هذا قد حدث فإنه من المحزن أن أتذكر العجوز جالسًا فى الليل يصغى لما فعلته (كاتى) ويقول : « فى سنى هذه يصعب أن تجد صديقًا غير المال يا صبى .. إنه لا يكذب عليك ولا يسرقك ولا يتخلى عنك .. ولولا المال الذى أملكه لألقونى فى الصحراء لكلاب البرية .. »

سألت سؤالا آخر :

- « رأينا كل شىء ممكن .. لكن ماذا عن العناكب ؟ سوف يكون من المخيف أن تكون هناك عناكب بشرية لكن لماذا لم نلق أحدها حتى الآن ؟ »

ابتسم (شوارتز) وقال فى غموض :

ـ « هل تعرف السبب ؟ يدهشنى أن يقع طبيب فى الخطأ الشائع ذاته .. »

ـ « أى خطأ ؟ »

ـ « العناكب ليست حشرات .. العناكب ذات ثمانى أرجل .. بينما لا تكون الحشرة حشرة إلا إذا كان لها ست أرجل ، وانقسم جسدها بوضوح إلى صدر وبطن ورأس .. واضح أن الأمر الذى يحدث هنا يتعلق بالحشرات ولا شىء سواها »

مشينا فى ظلام الليل على غير هدى عاجزين عن العودة إلى الموتيل .. غير راغبين فيه .. كنا راغبين فى الفرار .. فلماذا لا نفعل هذا الآن ؟

قال (هارى) وقد بدأ يبتلع هذا الكلام العجيب :

ـ « لكن .. لا توجد تحولات مظهرية واضحة .. هل تعتقد أن هذا الدبور البشرى كان يطير وله زبان يتدلى من مؤخرته ؟ »

ـ « نحن لم نره بوضوح .. لكننى على الأقل رأيت الفتاة (ماى) .. بالتأكيد لم تكن تشبه الذبابة .. إما أن التحول جزئى وإما أن هذه مرحلة أولى ولسوف يكتمل الأمر قريبًا .. »

قلت فى قلق :

ـ « هل تعتقد أنه من الممكن أن نرى أمامنا هؤلاء الرجال ـ الزنابير يحلقون فى الهواء ؟ »

ـ « أنا لا أعتقد أى شىء .. ما يحدث هنا غير مسبوق .. نحن نتعلم بالطريقة الصعبة .. نتعلم أثناء وقوع الأحداث لا قبلها .. لو رأيت رجالا زنابير يطيرون ويلدغون فمعنى هذا أن هناك رجالا زنابير يطيرون ويلدغون .. لا توجد طريقة أخرى »

ونظرنا إلى السماء المظلمة التى تلبدت بالغيوم ..

وشعرنا بهلع .. يمكن بالفعل أن نتصور الآن أن تمتلئ هذه السماء بالزنابير الآدمية .. يبدو عسير التصديق لكن أى شىء يمكن تصديقه فى هذا الذى يحدث ؟

إن الخطر داهم .. بالفعل تحمل الساعات التالية احتمالات كابوسية ..

هنا قال (هارى) أهم سؤال فى الأمسية كلها :

ـ « عرفنا ما يحدث لكن لماذا يحدث ؟ ما تفسيره ؟ »

نعم .. السؤال الأول دائمًا يكون ماذا؟ السؤال الثانى هو كيف ؟ السؤال الثالث هو لماذا ؟

★ ★ ★

-2-

دخلنا بيت القس عندما أشرقت الشمس ..

لم يعد المأمور حتى الصباح ولم يعرف أحد عنه شيئًا ، لكنى استبعدت أن يموت .. هو أذكى من ذلك .. دعك من أنه ظل مأمورًا سبعة عشر عامًا ..

لقد حكى لى (بيلى) والفتاة الكثير عن المأمور وساديته التى امتدت لكل شىء حتى أسرته .. لا أعرف ما حدث له ، لكنى بشكل ما أشعر بأنه يستحقه ..

كان (شوارتز) هو الذى اقترح أن ندخل بيت القس .. وأن نفعل هذا بأنفسنا .. إن المأمور لن يسمح بذلك طبعًا بسبب موقعه الرسمى ، ولما كان القس غالبًا يعرف كل شىء فإن بيته قد يحوى دليلاً ما ..

قال (شوارتز) وهو يدور حول البيت المغلق :

ـ « أنا أحلم بمذكرات .. هذا عسير لأن القساوسة لا يكتبون ما يسمعون من اعترافات ، لكنى آمل فى أن يكون ما سمعه مخيفًا .. مخيفًا إلى الحد الذى دفعه ليدونه »

كان الاحتمال واهيًا لكننا قررنا أن نستكشف على كل حال ..

لم نكن نعرف البيت فتطوع (بيلى) بأن يرافقنا إلى هناك .. ومن الخارج بدا لنا المكان صموتًا أكثر من اللازم .. الحديقة مهملة وإن كانت بها عدة أحواض لسقاء الطيور ، ويبدو أنه كان مولعًا بها حقًا ..

هناك بيت .. بالنسبة لى كمصرى يبدو أى بيت ذى حديقة فاخرًا ، لكن من الواضح أنه متواضع جدًا بالنسبة للمعايير الأمريكية ..

قال (بيلى) :

- « إنه يترك الباب الخلفى مفتوحًا .. كل البلدة تعرف أنه لا يملك شيئًا لذا هو لا يخاف السرقة .. »

وارتجف صوته .. لقد تذكره الآن .. لم يكن يميل له فى حياته لكن تجربة الليل جمعت بينهما بشكل ما ، ثم جاءت الوفاة المفاجئة .. الوفاة التى كان يمكن أن تكون من نصيبه لو أن الهجمة أصابته هو ..

فتح (هارى) الباب .. وبحذر دخل .. ومشينا وراءه فى البيت الذى مات صاحبه .. مات ولا نعرف هل نسترد جثته

أم لا .. فى أسوأ كوابيسه لم يتصور أن يموت بلدغة زنبور آدمى ..

راح كل منا يتفقد حجرة .. لا يوجد شىء سوى مجموعات كبيرة من الكتب .. ثمة نظارة مقربة كان يراقب بها الطيور .. هناك عشاء لم يتناوله ويبدو أنه قرر أن يبقيه إلى حين العودة من جولته الاستكشافية .. تفاصيل صغيرة تجعل فى حلقك غصة لو كنت تفهم ما أعنيه ..

فجأة صاح الفتى بلهجة منتصرة :

- « أنا فى غرفة النوم .. أعتقد أن هذا شىء .. »

وخرجنا إلى البهو لنجده ممسكًا بمفكرة صغيرة .. أمسك (شوارتز) بها باعتباره صار قائد مجموعتنا من دون انتخاب .. قلب الصفحات من آخرها ثم توقف عند مقطع بعينه وتلاه بصوت عال :

- « سوف أذهب لأرى بنفسى ما قالته لى (كلاريسا) .. »

ما الذى قالته له (كلاريسا) ؟ ومن هى أصلاً ؟

قال (بيلى) وهو يصلح من وضع عويناته :

- « زوجة مدرس البلدة .. امرأة بارعة الحسن مهذبة .. تعمل فى متجر .. »

قال (شوارتز) وهو يجوب بين الصفحات :

- « وقد جاءت تقدم له اعترافًا .. الاعتراف الوحيد الذى دونه القس .. لقد كنت على حق .. يبدو أنها الشخص الوحيد الذى قرر أن يتكلم فى البلدة كلها .. »

ثم راح يقلب الصفحات وبدا عليه الاهتمام ..

قال بصوت عال مرتجف قليلاً :

- « هنا وصف للحفلات كما جاء على لسان المرأة .. هذا مفيد جدًا .. ثمة تفاصيل مريعة هنا لكن لا وقت لقراءة كل شىء .. ثم .. اسمعوا هذا الجزء : فى المرات التى كانت (كلاريسا) ترفع ذراعها فيها لينحسر الكم الطويل عنها ، كنت أدرك أن شيئًا ليس على ما يرام .. هناك شعيرات معقدة تحيط بالذراع .. أجزاء خشنة وأجزاء ملساء .. لو شئت الدقة لقلت إن هناك أمشاطًا تبرز من ذراعها ! »

رحنا نتصور المشهد فلم نفلح .. يكفى أنه مرعب ..

قال (شوارتز) :

- « ألم تفهموا بعد ؟ أمشاط .. توجد حشرة تملك ترسانة كاملة التجهيز حول أقدامها .. سلال وفرشاة وقطاعات ورماح تخترق الشمع .. إنها النحلة ! شغالة النحل .. لا توجد صعوبة فى تصور ما انتهت إليه تلك المرأة .. »

وتبادلنا النظرات ..

قال (بيلى) :

- « إن بيتها قريب من هنا .. هل ترون أن نذهب هناك لنطمئن ؟ »

لم يكن هناك ما يمنع .. خاصة أننا وجدنا ضالتنا .. هذه المفكرة يجب أن تطالع بعناية ..

على أن (شوارتز) فتح الصفحة الأولى ثم غمغم :

- « القس دون هنا كلمات أغنية (إليانور رجبى) .. أغنية البيتلز الشهيرة .. ما معنى هذا ؟ لماذا هذه الأغنية بالذات ؟ »

كنت أنظر إلى جوانب المسكن المقفر ، والذى لن يعرف بعد اليوم إلا التراب والعناكب والظلام .. وفى سرى سمعت الأغنية القديمة تتردد :

- « (إليانور رجبى) ماتت فى الكنيسة ودفنت ومعها دفن اسمها ..

الأب (ماكنزى) ينفض الغبار عن يديه وهو يفارق قبرها ..

فلم يتم خلاص أحد ..

هؤلاء الناس الوحيدون .. من أين يأتون ؟ ولأين ينتمون ؟ »

★ ★ ★

دققنا الباب عدة مرات فلم يرد أحد ..

شعرت بامتنان لعادة الأمريكيين فى عدم إغلاق الباب الخلفى ، فهى تسمح لك بالدخول فى أى وقت .. عامة لا أفهم كيف يشعرون بالأمان فى هذه البيوت المليئة بالثغرات لكن هذا ساعدنا على كل حال ، ودخلنا البيت ..

كان (بيلى) يشعر برهبة لأنه يقتحم بيت معلمه .. الحق أنه كان من الطلبة القلائل المحترمين فى هذه البلدة كما فهمت .. لكن كل شىء يوشك على أن يتلاشى ..

- « مستر (رتشاردسون) ! »

لا أحد يرد .. وكور (هارى) قبضته متحفزًا .. فى أية لحظة يمكن أن تبرز لنا نحلة آدمية عملاقة .. هذا هو ما يمكن فهمه من تلك المذكرات لو كانت دقيقة ، وهى كذلك .. لا شىء فيها يعارض ما قاله الفتى ولا ما رأيناه حتى اللحظة ..

- « مستر (رتشاردسون) ! »

بحثنا فى كل صوب .. فلم تبق إلا غرفة النوم ..

قال (شوارتز) وهو يناولنى سكينًا :

- « أبق هذه فى يدك .. لقد أتيت باثنتين من المطبخ .. نحن لا نعرف ما قد نجده .. »

وفى حذر وجل مشينا نحو الغرفة الوحيدة التى لم نستكشفها بعد ..

وفجأة تصلبنا ..

قال (شوارتز) وهو يمشى بضع خطوات حذرة للأمام :

- « الأمر واضح .. لقد دخل عليها وقد نزعت الثياب التى كانت تخفى حقيقتها .. لا بد أنها حاولت منعه من الفرار »

على الأرض كان المستر (رتشاردسون) جثة هامدة .. وجهه مزرق تمامًا ونظرة هلع فى عينيه .. تصلب عام فى أطرافه .. وفى قلبه انغرس ذلك الزبان العملاق .. بحجم خرطوم الرى ..

لكن المثير فى الأمر هو تلك الجثة التى هى خليط غريب من امرأة ونحلة .. على بعد مترين من الجثة الأولى ، وقد اكتست بالشعر تمامًا .. الأطراف مغطاة بتلك الأدوات المعقدة كما وصفها (شوارتز) .. أمشاط .. فرش .. سلال لجمع حبات اللقاح .. مخالب للتمسك بالسطوح الخشنة .. إلخ .. ويبدو أن الزبان كان يخرج من أسفل ظهرها .. العينان مفتوحتان لكنهما عبارة عن مجموعة من العيون المركبة المتراصة ..

وكأية نحلة شغالة حقيقية تحترم نفسها غرست الزبان فى قلبه ، لكنها تركت معه جزءًا من أحشائها .. لقد مات الاثنان فى اللحظة ذاتها ..

كان المشهد غريبًا .. غريبًا إلى درجة أنه ليس مفزعًا .. لا بد من خبرات معينة فى ذهنك تستدعيها للشعور بالفزع ، أما هذا المشهد فقد تفوق على كل شىء ..

بلل (هارى) شفتيه بلسانه ، وقال :

- « معنى هذا .. أن التحول موروفولوجى كامل .. »

- « هذا صحيح .. »

وانحنى (شوارتز) يتفحص الجثة الأكثر غرابة : النحلة .. وقال فى قلق :

- « ما يضايقنى هو أنها تبدو أقرب للنحلة منها للأنثى .. ما كان القس ليفتح لها باب بيته وهى بهذا الشكل .. »

- « وماذا فى ذلك ؟ »

قلت أنا وقد فهمت ما يريد قوله :

- « معنى هذا أن التحول كان سريعًا جدًا .. لقد ظلت فترة لا بأس بها بمظهر طبيعى أو ربما كانت تخفى تلك الشعيرات بساعدها .. لكن فجأة صارت بهذا الشكل .. لا بد أن الأمر تم خلال ساعة أو ساعتين .. »

قال (شوارتز) وهو يهز رأسه :

- « هذا مقلق .. أكثر من شخص سيتحولون فى الساعات القادمة .. »

المصيدة تنغلق علينا ببطء ..

ترى أين وكيف سنكون غدًا ؟

★ ★ ★

-3-

« جونى .. أمسك بالقوس واعزف كمانك جيدًا ..

إن الجحيم قد تفجر فى (جورجيا) والشيطان يوزع أوراق اللعب ..

فلو فزت لربحت هذا الكمان الجميل المصنوع من الذهب ..

ولو خسرت لظفر الشيطان بروحك ! »

★ ★ ★

من تبقوا من أهل البلدة كانوا يقفون فى الشارع الرئيس بينما تلك السيارات تندفع مبعثرة الرمال والغبار .. سيارات فاخرة من (فينكس) .. إنه فريق الشرطة الذى اتصل به المأمور منذ أيام ..

حوالى أربع سيارات .. ثم سيارة كبيرة نوعًا تشبه سيارات (البوكس) عندنا .. وسرعان ما توقفت السيارات جميعًا أمام مكتب المأمور .. وترجل منها الركاب .. فيما بعد رأيت فيلم (رجال فى ثياب سود) فخطر لى أن هذا

مظهرهم بالضبط .. النظارات سود .. الثياب سود وأنيقة جدًا .. بعض الرجال له مظهر كلب الحراسة الشرس اليقظ .. يمكنك أن تسمع أفكارهم : هذا الوكر الحقير .. ماذا يمكن أن يحدث فيه ؟ رجال الشرطة الريفيون هؤلاء لا يفقهون شيئًا .. دع هؤلاء القرويين يروا قوة التمدين ..

بدا من منظرهم أنهم مندهشون لأن أحدا لم يلقهم .

ومن السيارة التى تشبه (البوكس) نزل رجال فى ثياب سود بدورهم ، لكنهم مدججون بالسلاح ويضعون كاسكيتات على رءوسهم .. يبدو أن هذه قوات (السوات SWAT) ذائعة الصيت .. كانوا حوالى عشرين رجلاً وقد وقفوا عاجزين عن معرفة ما عليهم عمله .. ينظرون حولهم .. يتبادلون الكلام الهامس .. أحدهم راح يتظاهر بإطلاق النار على صبيين شقيين .. هؤلاء القوم مدربون على إطلاق النار ثم التفاهم .. وهذا الوضع المرتبك لا يروق لهم ..

أكبر الرجال وأهمهم شأنا كما هو واضح يقف حائرًا ويضع يديه فى خصره .. ثم ينظر متسائلا ..

دنا منه أحد الفضوليين الواقفين ونزع قبعته الرثة وقال له :

ـ « معذرة يا سيدى .. المأمور مختف منذ البارحة وكذا مساعده .. »

ـ « إذن من المسئول الأمنى فى هذه البلدة ؟ »

ـ « لا أحد .. »

ـ « غريب ! »

وتبادل النظرات مع من حوله ..

ـ « لهذا لم يرد على الهاتف .. »

هنا كنت أنا و(شوارتز) و(هارى) قد دنونا من الرجل .. كان (شوارتز) أدرانا بالشرطة .. دعك من مظهره الموحى بالاحترام والثقة .. أنا أبدو كالجرادة و(هارى) يبدو مشاغبًا ..

قال (شوارتز) وهو يمد يده لمصافحة الرجل :

ـ « د. (جوزيف شوارتز) .. خبير منتدب فى علم الحشرات العدلى .. إن إدارتكم أرسلتنى هنا »

ظل الرجل ينظر له متسائلا من وراء زجاج نظارته الأسود ..

قال (شوارتز) :

ـ « المأمور اختفى .. لكن بوسعى أن أعطيك تقريرًا كاملاً عن الأحداث الغريبة التى وقعت فى هذه البلدة .. لو أردت رأيى لقلت إنها أحداث استثنائية .. هل معكم أحد من الـ FBI ؟ »

ـ « لا .. نحن رجال شرطة فقط .. »

ـ « إذن ستكون مهمتى أسهل .. »

فكر الرجل قليلاً ونظر لمن حوله ، وقال :

ـ « هل رائحة البلدة كريهة هكذا دومًا ؟ »

ـ « سوف تعتاد هذا .. وتعتاد الأضواء الليلية وصوت الطبول المعدنية .. وصوت نطاط الحقل .. صدقنى »

أشار الرجل إلى مكتب المأمور فأزاح (شوارتز) الباب ودخل ودخلنا خلفه ..

كان الأخوان (كالاهان) اياهما فى الحجز يتسليان بلعب دور (العصى الرحالة) عندما رأيانا .. لم يتكلما بل ظلا ينظران لنا فى فضول من وراء القضبان ..

استدار (شوارتز) ليقول لـ (هارى) همسًا :

ـ « آسف لوقاحتى .. لكن هذين لم يأكلا شيئًا منذ البارحة .. هل بوسعك أن تبتاع لهما بعض البسكويت من أى متجر ؟ هذه هى مشكلة السجناء إذا مات السجان .. »

ـ « وهل السجان قد مات ؟ »

ـ « أعتقد هذا .. »

وهناك فى المكتب الذى كتب على بابه (المأمور) اجتمع (شوارتز) بالرجال المتأنقين الذين كان عددهم عشرة .. وبدأ (شوارتز) يحكى القصة منذ بدايتها ..

★ ★ ★

ـ « (ساندرا) !! »

كان هذه من (بيلى) وهو يرى الفتاة قادمة من نهاية الشارع .. سليمة بحق سليمة جدًا .. وثب قلبه فى صدره .. لم يتصور أنه سيراها حية مرة أخرى ..

دنت منه ونظرت له فى ثبات ، ثم قالت :

ـ « هو ذا الفتى الشجاع قد عاد .. »

قال فى ضيق :

- « لقد لحقت بك .. لكن كانت لى مغامرة قاسية فى (مخالب الشيطان) .. إن البلد ذاهبة إلى الجحيم فعلاً .. . »

- « لن أستغرب هذا .. »

- « لقد هلك القس .. الأب (ميلروى) .. كان هذا أمام عينى .. »

اتسعت عيناها الصافيتان .. ووضعت يدها على كفه وهمست :

- « يا للبائس الصغير ! »

كانت دمعتان متحجرتين بالفعل خلف عويناته .. وأدرك أنه لو تكلم لانفجر باكيًا وكانت فضيحة .. قالت هى :

- « أنا ذهبت وراقبت ما يحدث هناك .. يبدو لى أن الساعة قد حانت .. إنهم قد تلقوا أوامر التفرق فى البلدة . »

- « وهل مارسوا ذات الطقوس ؟ »

- « ذاتها .. »

ساد الصمت قليلاً ، ثم قال :

- « كانت ليلة دامية .. القس مات .. المأمور ونائبه مختفيان وكذلك (سكروج) العجوز صاحب الموتيل .. الأستاذ (ريتشاردسون) وزوجته ماتا .. »

هتفت فى ذهول :

- « يا للهول ! (كلاريسا) !! »

- « نعم .. تلك الحسناء الرقيقة .. لقد صارت نحلة آدمية وقتلت زوجها .. يقولون إن هناك بشرًا يتحولون إلى حشرات .. وهناك رجال من (فينكس) جاءوا للتحقيق »

قالت بلهجة تقريرية :

- « الليلة سأعود .. أنت حر فى اللحاق بى أو تركى .. ربما يقبل (جويل) أن يصحبنى .. لكنى أعرف يقينًا أن الكابوس بدأ من موضع ما قرب أكواخ (النافاهو Navajo) القديمة التى بنيت قرب المنجم .. سوف أذهب هناك »

- « ولماذا لا تخبرين رجال الشرطة ؟ هل يجب أن تلعبى دور الفتاة الحمقاء فى أفلام الرعب ؟ تلك التى تموت لأنها (أرادت ذلك) ؟ »

قالت وهى تتحسس خصلات شعرها :

ـ « ليس لدى ما أحكيه إلا الشكوك .. لا بد من أن أتأكد .. »

كان (بيلى) يعرف هذه الأكواخ المتناثرة قرب المنجم .. إن هنود (النافاهو) والـ (هوبى) هما أكبر تجمع للهنود فى الولايات المتحدة كلها .. منذ زمن سحيق كانوا يعيشون فى كندا ثم هاجروا للجنوب ليستقروا فيما نعرفه اليوم باسم (أريزونا) .. اختلطوا بهنود آخرين مزارعين اسمهم (بويبلو Pueblo) فتعلموا منهم فنون الزراعة .. يعيشون فى أكواخ من طين يمارسون فيها النسيج .. أكواخ لها خاصية مميزة هى أنها مفتوحة نحو الشرق .. هذه هى الطريقة التى يحيون بها الشمس .. ولهم مجتمعهم الخاص البعيد عن عادات الأمريكيين والمكسيكيين .. لهم كذلك لغتهم الخاصة التى كان الأمريكيون يستعملونها أثناء الحرب العالمية الثانية كنوع من الشفرة التى يستحيل فهمها على اليابانيين ..

لكن .. الليل والظلام والمغامرة .. ويد (ساندرا) ترتجف فى يده .. لو لم تقع فى حبه بعد مغامرة كهذه فلن

يحدث هذا أبدًا .. الجبناء لا يظفرون بأى شىء ويموتون متحسرين ..

فكر قليلاً ، ثم قال لها :

ـ « ليكن لكن متى ؟ »

ـ « التاسعة مساء .. نتحرك من جوار (جاكسون) .. لا تنس كشافك »

نعم الكشاف .. ولسوف يتزود باحتياطات أكثر ..

★ ★ ★

لما انتهى (شوارتز) من عرض القصة كان واضحًا دقيقًا مقنعًا إلى درجة أن كبير القادمين من (فينكس) ـ ويدعى المفوض (مكالستر) ـ قال فى حماس :

ـ « كل ما تقوله كلام فارغ ! »

كانت هذه هى النهاية .. لا يوجد ما يضاف إلى القصة .. قلت وأنا أتوقع أن يقول لى أحدهم إنه لا شأن لى بهذا :

ـ « هل فحصت الجثث التى أرسلوها لكم ؟ »

- « لدينا تقارير الطب الشرعى .. ولا أرى أنها تدعم حرفًا مما يقول هذا الرجل .. »

- « هناك جثة اختفى رأسها وعنقها وأعلى صدرها .. هل لديك تفسير لهذا ؟ ما لم توجد سمكة قرش فى شوارع البلدة .. دعك من أن هناك امرأة ميتة هى مزيج من نحلة وامرأة .. أؤكد لك أن منظرها ليس محببًا »

- « ليس لدى تفسير لكن هناك حلا منطقيًا فى مكان ما بدلا من هذا الهراء عن الحشرات .. بعض الجثث التى وجدوها سليمة تحوى سمًا فى الدم .. وهذا السم يمكن للقاتل حقنه فى الجسد .. إنه ... »

وفتح ورقة كانت أمامه ليتذكر الاسم ثم قال :

- « حمض الفورميك .. »

تبادلت و(شوارتز) النظر .. حمض الفورميك الذى يترجمه البيولوجيون العرب بحمض (النمليك) ! السم الذى تحقن به النملة ضحاياها ! عندما تكون عندك نملة بحجم الإنسان فإن سمها يمكن أن يقتل إنسانا بسهولة تامة ..

قال (شوارتز) باسمًا :

- « هل ترى ؟ لم نر قاتلا يستعمل حمض الفورميك من قبل .. لكن .. نملة عملاقة .. ألم تفكر فى هذا ؟ »

وأشعل لفافة تبغ فهتف (مكالستر) :

- « أنا لا أسمح بالتدخين .. لقد صار هذا المكتب مكتبى من اللحظة .. وأمن هذه البلدة هو مسئوليتى الخاصة .. »

لم يطفئ (شوارتز) لفافة تبغه وإنما نهض ، وقال فى ثبات :

- « حسن .. أرجو أن تنعم بوقتك هنا .. لكن أنصحك بأن ترسل رجالك للبحث فى منطقة (مخالب الشيطان) قبل فوات الأوان .. ربما استطعتم إنقاذ المأمور أو العودة بجثته .. »

- « شكرًا على نصائحك .. والآن لو سمحتم لى .. فنحن مشغولون .. »

غادرت المكان أنا وصديقاى الأمريكيان ..

وفى الخارج كان زحام السيارات .. بينما رجال الأمن المسلحون لا يعرفون ما يجب عمله .. لم يرسم لهم أحدهم

خطة من أى نوع .. بعضهم راح يتسلى بالعبث فى أنفه .. وبعضهم أشعل لفافة تبغ بعيدًا عن عينى قائده ، والمبتكرون منهم راحوا يبصقون على الأرض ثم يغطون البصقة بالغبار .. لعبة مسلية كنت أمارسها فى المدرسة الابتدائية .. لقد جاءوا للقتل ولا يعرفون سبب هذه الربكة ..

قلت لـ (هارى) :

- « يبدو أننا سنشتاق أيام المأمور الباسمة .. أرى أنه كان رجلاً رقيقًا ذكيًا .. »

قال (شوارتز) وهو يلوك لفافة التبغ :

- « مركبات نقص من الطرفين .. ضلالات .. المأمور كان مصابًا بوساوس الفحولة والقوة .. هؤلاء مصابون بوساوس الذكاء والاحتراف المهنى .. إنهم لا يقبلون أن يستمعوا لأحد ولهذا سوف يفشلون .. »

- « وبعد هذا ؟ »

- « إن قبضة الدولة أقوى من كل هذا السخف .. سوف تأتى وحدات من الجيش وتسيطر على كل شىء

حتى لو أحرقوا البلدة كلها بالنابالم .. لكننا على الأرجح سنكون قد هلكنا .. »

أخبار باسمة بحق .. سوف تنتهى المشكلة لكننا سنموت فى جميع الحالات .. بشكل ما أحسد من هلكوا .. على الأقل هم يعرفون يقينًا أنهم لن يموتوا !

صوت الدقات يتعالى (بانج بانج) .. والرائحة الكريهة لم تتحسن ..

وذلك الهاجس يعاودنى : المنجم .. المنجم ..

قلت له وأنا أنظر تجاه الموتيل الذى نراه عن بعد :

- « سوف نتناول الغداء ثم نتجه إلى منطقة ذلك المنجم .. أعتقد أن بوسعنا أن نعرف شيئًا .. »

- « هذه مخاطرة مع ما نعرفه وما رأيناه .. »

- « ستكون المخاطرة محدودة نوعًا فى النهار .. »

- « ولماذا المنجم بالذات ؟ »

طبعًا لا أقدر على التفسير .. لذا قلت :

- « لأن الجميع كانوا يلتقون هناك »

وهكذا اتجهنا إلى الكافتيريا التى فقدت صاحبها أمس .. ونادى (هارى) (باتريشيا) ليطلب غداء طيبًا ولم ينس أن يلقى عليها كلمة غزل عابرة قابلتها ببرود مهنى .. تشد شفتيها حتى تصيرا رفيعتين تمامًا على سبيل الابتسامة مما يذكرنى بالضحكة الصفراء لدى مرضى الكزاز (التيتانوس) .. ثم تنصرف وتعود حاملة تلك الصحفة بما عليها ..

قلت لها وأنا أنقل ما تحمله إلى المنضدة :

- « ما هو مصير المحطة والموتيل والكافتيريا يا (باتريشيا) ؟ من سيدفع لك راتبك ؟ »

نظرت لى فى سماجة بما معناه أن هذا ليس من شأنى .. ثم دست القلم خلف أذنها ، وقالت :

- « لا أحد .. لكنى سأدير كل شىء إلى أن يظهر العجوز أو أحد ورثته .. لاحظ أننى كنت أفعل كل شىء وحدى .. ثم إن العجوز لم يكن يعطينى مالا على الإطلاق .. لن يتغير إيقاع حياتى كثيرًا .. »

لما انصرفت وتأكدت من أنها ليست هنا ، قلت للرجلين :

- « طبعًا يجب أن نتفق على أن ما يقال هنا سر .. بالذات بالنسبة لهذه الفتاة .. لاحظ أنها آخر من تكلم مع (سكروج) قبل اختفائه .. »

ثم نظرت إلى (هارى) محذرًا :

- « أنت بالذات .. كف عن قاعدة (جميلة إذن هى بريئة) .. »

قال فى ضيق :

- « قاعدتى هى (جميلة إذن هى تصلح) ! »

انتهينا من الغداء ، فقلنا بصوت عال إننا سنقوم بجولة فى البلدة .. تعرفون تلك الطريقة الساذجة فى الأفلام العربية القديمة .. يمكن لأى مغفل أن يعرف أننا نكذب .. فقط تمنيت ألا يكون فيلم إسماعيل يس الذى يقول فيه (فتشنى فتش) قد عرض فى الولايات المتحدة ..

غادرنا الموتيل .. ركبنا سيارة (هارى) التى راحت تقطع شوارع المدينة متجهة إلى منطقة المنجم ..

سألت (شوارتز) عن أعمال التنقيب عن النحاس هنا .. لا أشعر أن هناك نشاطًا كبيرًا .. كنت أحسب البلدان التى توجد فيها مناجم أكثر صخبًا .. قال وهو ينظر خارج النافذة :

ـ « هذا المنجم قد انتهى منذ زمن .. لكنهم يستعينون بالبكتريا لفصل نحاسه .. يعتقدون أن هذا قد يعطيهم عشرة آلاف طن أخرى .. لهذا يبدو عملهم هنا أقرب إلى عمل البيولوجيين .. إن سادة هذا الموضوع هم العلماء السوفييت الذين أنشئوا محطة لفصل النحاس بيولوجيًا فى جبال الأورال .. ومن ثم انتشر الأمر فى الولايات المتحدة وفى كل مناجم العالم »

بدا لى الأمر غريبًا .. ما دخل البكتريا باستخلاص النحاس ؟ كانت هذه أول مرة أسمع فيها شيئًا كهذا ..

قال (شوارتز) وقد أدهشه جهلى :

ـ « كنت أحسب هذه الأمور بديهية بالنسبة لك كطبيب .. »

قلت فى غيظ :

ـ « حقًا .. إن التعدين جزء مهم من دراسة الطب عندنا فى مصر .. لكنى لم أهتم به .. »

قال (هارى) وهو مصر على إغاظتى :

ـ « هذه معلومات عامة .. حتى أنا خبير الحاسبات الآلية أعرف هذا .. »

ـ « ليكن .. اعتبرا أنكما تصحبان حمارًا .. ربما أكون جاهلا لكنى أملك مزية أتفوق بها على الجميع .. أنا جائع للعلم طيلة الوقت .. وأمتصه كبعوضة جائعة .. ولهذا أعتبر نفسى رائعًا .. »

لم يحب الرجلان لفظة (بعوضة) وبدا أننى لم أوفق تمامًا فى استعمالها .. إلا أن (شوارتز) تقبل هذا وواصل الكلام :

ـ « العملية اسمها الترشيح الحيوى **bioleaching** .. فى الواقع ليست بكتريا بالضبط .. لو شئت الدقة لقلت إنها **archaea** (أركيا) .. إنهم يبحثون عن بكتريا تتحمل الحرارة العالية أو سمية الفلزات ذاتها .. مثلاً قد يجدون أنواعًا منها فى منجم فحم فى أستراليا أو بركان فى إيطاليا .. البكتريا التى يستعملونها هنا تتحمل درجات حرارة تصل إلى ٧٠ مئوية .. يجلبونها من بركان إيطالى

لذا يطلقون عليها Acidianus infernos .. اسم موح بالجحيم كما ترى .. »

قال (هارى) وهو يتابع الطريق :

- « حماس علمى جميل .. كنت أعرف أننى أذهب إلى الجحيم مع مخبولين .. لكنى توقعت أن خبالهما من النوع الحميد .. »

بالفعل كان محقًا .. لذا آثرت الصمت .. ليس أفضل وقت تناقش فيه تقنيات استخراج النحاس هو الوقت الذى يتحول فيه البشر إلى خنافس ..

ومن بعيد بدا لنا الجسر الذى يصل إلى المنجم ..

★ ★ ★

-4-

بين الأخاديد التى يطلقون عليها مخالب الشيطان مشى رجال الشرطة ..

الحق إنهم بدءوا يشعرون بشىء غير مريح .. هذه الشبكة المعقدة من البيوت الورقية والشمعية والطينية .. مشهد سريالى رسمه (دالى) بجهد جهيد .. لو كنت هناك لأخبرتهم أن المخرج الإسبانى السريالى المجنون (لوى بونويل) كان يعشق الحشرات ويقحمها فى كل أفلامه .. (كافكا Kafka) قدم اسوا نموذج للتحول الحشرى عندما جعل بطل روايته (المسخ) يتحول إلى شىء أقرب لصرصور عملاق .. باختصار .. لا يمكن تقديم كابوس من دون حشرات .. هذا يفوق القدرة البشرية ..

فى المقدمة كان ذلك الرجل الذى نسيت اسمه .. هل كان (ماكالستر) ؟ والمسدس فى يده .. الرجال كانوا متوترين لكنهم كانوا محترفين .. لذا اتخذوا أوضاعًا مدروسة وهم يمسحون المنطقة .. فلو تحرك فأر لتحول إلى بخار خلال ربع ثانية ..

من حين لآخر يسقط أحدهم فى أخدود فيسب ويلعن ويعاونه الرجال على النهوض .. إنهم يبحثون عن المأمور الذى ذهب يبحث عن جثة القس ..

قرب حفرة بعينها وقف أحد الرجال وصاح ينادى (مكالستر) :

ـ « هلا اقتربت أيها المفوض ؟ »

أسرع (مكالستر) يلحق به وهو يتوقع أن يرى جثة شاخصة البصر فى قاع حفرة من هذه .. لكن ما رآه كان لا يصدق .. سوف يزور المشهد كوابيسه للأبد لو عاش ..

كان هذا هو المأمور بالتأكيد .. قميصه والشارة تقول هذا ، لكن عينيه تنظران لأعلى .. إنه حى .. فوق صدره بقايا بيض عملاق ممزق كأن طيورًا قد فقست منه .. لكن لم تكن هناك طيور .. كان هناك كائنات عملاقة هى مزيج شنيع من يرقات وأطفال .. وكانت تلتهمه حيًا !

لم يكن يتحرك .. فقط قالت عيناه المذعورتان كل شىء .. أنقذونى !

ما لم يعلمه هؤلاء هو مدى السخرية الكامنة فى هذا المشهد القاسى .. لعله شىء مقصود .. المأمور قضى سبعة عشر عامًا فى الخدمة .. والزنبور يهوى اصطياد (السيكادا) التى يطلقون عليها اسم (جرادة السبعة عشر عامًا) .. السبب أن بقة (السيكادا) تقضى سبعة عشر عامًا تنمو فيها تحت سطح الماء ثم تخرج للسطح لتعيش أربعة أشهر فقط .. الليلة قد ظفر الزنبور بهذه الجرادة العملاقة .. وهو ذا قد خدرها ليشلها عن الحركة وألقى بها فى حفرة ثم وضع بيضه فوقها .. والغرض هو أن تجد اليرقات التى تفقس ما تأكله ..

من قال إن عالم الحشرات ليس شديد القسوة ؟ إن الجرادة البائسة تظل حية بينما تتغذى عليها تلك اليرقات البشعة ..

سبعة عشر عامًا أيها المأمور .. ما كان يجب أن تثرثر بهذا كثيرًا ..

حالة هستيريا انتابت (مكالستر) ، فصرخ فى رجاله :

ـ « اقتلوا هذه المخلوقات القذرة !! »

نظروا له فى حـيرة .. لا يمكن التصويب من دون قتل الـ ...

ـ « آمركم بإطلاق النـار ! إنـه لـن ينجو ممـا أصابـه .. فلتريحوه !! »

وانطلقت البنادق الآلية تمزق كل ما كان فى الحفرة ..

★ ★ ★

تاتا تا تا ك !!!

كنا فوق الجسر عند المدخل تقريبًا عندما سمعنا هذه الطلقات .. انتفضنا جميعًا .. لكننا قدرنا أن الفرقة إياها تتفقد المنطقة .. ومـا دامـوا فعلوا هذا فلسـوف يقـابلون أشياء كثيرة تستأهل إطلاق النار ..

قال (شوارتز) :

ـ « برغم كل شىء أشعر بالاطمئنـان لأن هؤلاء هنـا .. إنهم مسلحون ومحترفون »

قلت وأنا أنظر إلى الأفق :

ـ « لا أشاركك الرأى .. إنهـم حمقـى وهـذا مقلـق .. ثـم إنهم قد يتحولون بدورهم ! تخيل قوة من رجال (السوات) تحلق حاملة أسلحتها وتلسـع كالزنـابير ! سيكون هذا فيلم رعب رائعًا ! »

قال (هارى) مصححًا :

ـ « ليسوا من (السوات) .. إنهم رجال شرطة مسلحون مدربون .. هذا كل شىء .. »

كان مدخل المنجم واسعًا للغاية كأنـه فم الموت الفاغر .. وعندما دخلنا استطعنا أن نـرى تلك الصفوف المعلقة من المصابيح الواهنة الكئيبة تتدلى من سلك واحد عند السقف .. وكانت مضاءة برغم أنه لا أحد هنالك .. كانت هنـاك عربـات صغيرة تقف عند بداية خط حديدى .. عربات صدئة لا يبدو أنهـا تستعمل كثـيرًا .. هنـاك فئوس ومعدات حفر وبضـع خوذات معلقة .. بعضها من الطراز الذى يثبت فيه مصباح ..

هناك مصعد .. مصعد حقيقى مثبت لجدار صخرى .. لـه بـاب من القضبان الحديدية ..

لا يوجد كائن بشرى هنا ..

الحر خانق والرطوبة عالية بحق ..

الألم يتزايد فى صدرى مع اضطراب الخفقات الذى يجعلنى أسعل ..

توقفت على المدخل واستندت إلى الجدار ، وقلت فى حزم :

- « أنا لن أنزل .. لن أتحرك خطوة .. هذا أقوى منى .. »

قال (هارى) فى غيظ :

- « أنت أحمق كالعادة .. لا تنس أنك من أتى بنا هنا .. »

نظر لى (شوارتز) مدققًا ، ثم قال :

- « هل تعتقد أن سبب ما تشعر به هو رهاب الأماكن المغلقة (كلوستروفوبيا) ؟ أم إن قلبك مريض ولا يتحمل نقص الأكسجين ؟ .. أم إنك - ببساطة - جبان ؟ »

قلت وأنا أسعل متحسسًا صدرى :

- « كل هذا معًا ! من يرد النزول فليفعل .. لكن اتركانى هنا .. »

هز (شوارتز) رأسه .. بدا واضحًا أننى لا أمزح ..

راح ينظر حوله ووقعت عيناه على جهاز عملاق للتهوية وصهريج كبير تخرج منه مجموعة من الخراطيم الغليظة تتلوى أرضًا وتتجه إلى أعماق المنجم .. لا يمكن أبدًا أن تعرف أين توجد نهاياتها ..

التقط خوذة ذات كشاف ، وأضاء هذا الأخير ، ثم قال وهو يصوب النور إلى تلك الأشياء :

- « هل ترى هذا ؟ هذا المحلول يحوى البكتريا التى حكيت لك عنها .. إنهم يغرقون المنجم به ثم يتركونه يتفاعل .. بعد هذا يشفطون السائل وينزل الرجال للبحث عن النحاس الذى فصلته البكتريا .. »

- « قلت إنها ليست بكتريا .. »

- « بالفعل .. اسمها (أركيا) .. لكن دعنا من هذا .. من الغريب أنه لا يوجد أحد على الإطلاق هنا .. »

- « لست حزينًا على هذا .. »

نظر لـ (هارى) متسائلاً .. هل تتوغل معى ؟

كان هذا الأخير مستعدًا لخوض أية متاعب فى أى مكان فى أية لحظة ؛ لذا كور قبضته موافقًا .. وفى هدوء اتجه الرجلان إلى المصعد الحديدى .. واعتمر كل منهما خوذة من تلك المزودة بكشاف ..

صحت فى رعب :

ـ « هل هذا الشىء مأمون ؟ »

ـ « سنعرف حالاً ! »

وسرعان ما أغلق الباب الذى يذكرك بقضبان السجن وضغط على الزر .. ارتج المكان كله وتساقط الغبار من السقف .. مصعد من العصر (الباليوزى) كما هو واضح .. ثم بدأ يهبط وهو لا يكف عن الارتجاج لأسفل .. كل شىء يوحى بعدم الثبات فلو عرضوا على مليون دولار مقابل ركوب هذا المصعد لـ .. لفكرت قليلاً قبل أن أوافق ..

سرعان ما توارى المصعد ووجدت أننى أحدق فى بئر عميقة تفصلنى عنها بوابة من القضبان ..

أخيرًا أنا وحدى ..

أحب الوحدة بحق لكن ليس هنا .. ليس هنا ..

ونظرت لساعتى .. إنها السادسة مساء ..

ترى ماذا يحدث فى الخارج الآن ؟

★ ★ ★

بعد ثلاث ساعات تقريبًا دوت الطلقات من جديد ..

★ ★ ★

تاتا تا تا ك !!!

أجفل (بيلى) والفتاة حينما دوت هذه الطلقات ..

نظر لها فوجدها مذعورة فعلاً . . .

كان يتوقع سماع طلقات منذ رأى هؤلاء القوم فى البلدة .. من الواضح أنهم فى منطقة الأخاديد .. هذا واضح من اتجاه الصوت وإن لم يعد واثقًا لأن الصدى يفعل أمورًا عجيبة ..

قال لها :

ـ « لا تخافى .. إنهم يمشطون مخالب الشيطان .. يقصونها لو أردت الدقة !! »

كان تنظر للسماء .. وتضم كفيها معًا أمامها .. خطر له أنها تصلى .. ولكن .. لا .. هذا المنظر يبدو مألوفًا .. رآه من قبل ولكن أين ؟

يمشيان بين الأكواخ الطينية التى كان أولئك (النافاهو) يعيشون فيها .. كلها خال .. كان يعرف هذا لأنه جاء هنا مرارًا مع رفاقه .. لكنها تمشى فى ثقة كأنها تعرف ما تريد ..

من بين الأكواخ رأى ذلك الكوخ الذى يبدو بحال أفضل .. باب الكوخ جهة الشرق كما هى العادة .. دنا منه متوجسًا ليرى ذلك الرجل الهندى يجلس فى وضع الاحتباء أمامه وقد أشعل بعض الأعشاب وراح يغنى بصوت خافت .. وجواره كيس خيشى مزركش ..

فى الثلاثين من عمره .. يلبس الجينز وحذاء رياضيًا لكنه هندى بلا شك .. هذه الملامح لا يمكن أن تخطئها العين .. إن البلدة تعج بهم وتعج بالمكسيكيين ، لكنه لم يتصور أن يجد أحدهم فى هذا الكوخ ، كأن مائة عام قد اختفت بضغطة زر ..

وقف والفتاة أمام الرجل بعض الوقت .. ويبدو أنه أحس بهما ، فقال دون أن يرفع عينه :

ـ « (كاشينا) .. عند الـ (هوبى) اسمها (كاشينا) .. »

ومد يده فى الكيس ليخرج دمية ملونة زاهية .. ثم دمية أخرى .. وهو يقول :

ـ « (بولى سيو) .. الفراشة .. (بولى مانا) .. الفتاة الفراشة .. (بولى تاكا) .. الرجل الفراشة .. يعتقد الهوبى أن الله خلق الأطفال ، ثم أراد أن يسليهم وينسيهم قسوة الشيخوخة التى هم مقبلون عليها لا محالة . هكذا جمع لهم كل ألوان المروج والطبيعة الزاهية فى الفراشة .. ومنحها القدرة على الغناء بأجمل الأصوات .. شعرت البلابل بالغيرة ودعت الله كى يحرم الفراشة واحدة من هذه المزايا .. هكذا صارت الفراشة ساكنة لا تتكلم وإن احتفظت بألوانها .. »

نظر الفتى إلى الفتاة .. ما معنى هذا الكلام ؟

عاد الرجل يقول بصوته الهندى الجاف :

ـ « عندنا نحن النافاهو أسطورة عن إله اسمه (بيجوشيدى Begochidi) يشبه الفراشة وكان يقود شعبًا من الفراش .. سافر بعيدًا .. وحينما عاد وجد أن شعبه ارتكب المعاصى ومارس الزنا ، لهذا لعنهم .. وأصابهم بالجنون .. ومنذ ذلك

الحين جن كل الفراش .. إنه يندفع نحو النار لينتحر .. ألم تسأل نفسك عن السبب ؟ لأن (بيجوشيدى) غاضب .. »

ركع (بيلى) أمام الرجل وراح ينظر له من وراء الدخان المتصاعد من النار ..

قال له بصوت مبحوح :

ـ « هل تعرف حقيقة ما يجرى ؟ »

ـ « (يجوشيدى) غاضب .. »

واضح أنه فى حال نفسية غير طبيعية .. إنه مذهول تمامًا ويبدو أن الشعور بقرب النهاية جعله يتذكر أساطير الجدود ..

أخيرًا رفع الهندى عينيه عن اللهب ، وقال وهو ينظر للاثنين :

ـ « خذ الحذر .. ابتعد عن المرأة .. لأن شعبه انغمس فى الخطيئة لعنهم (بجوشيدى) .. الفراشة صارت خرساء .. الفراشة صارت خرساء .. »

قالت الفتاة وهى تمسك بيد (بيلى) :

ـ « أعتقد أنه مجنون .. لقد مس الخوف عقله فأحرق أى تعقل .. »

ـ « أنا أيضًا أعتقد هذا .. »

وابتعد الشابان بين الأكواخ المهجورة ، بينما صوت الهندى يلاحقهما وهو يترنم بلغته الغامضة ثم بالإنجليزية :

ـ « (بولى سيو) .. الفراشة .. (بولى مانا) .. الفتاة الفراشة .. (بولى تاكا) .. الرجل الفراشة .. » (يجوشيدى) غاضب .. »

أخيرًا صارا يمشيان وسط مساحة خالية ..

إن (بيلى) يفكر .. ما جدوى هذه الرحلة بين الأكواخ إذن ؟ واضح أنها لم تتوقع وجود هذا الهندى فماذا كانت تريد ؟

هل الهندى يعرف شيئًا ؟ الثقافة الأمريكية التقليدية تفترض حكمة غير طبيعية لدى هؤلاء القوم .. إنهم صموتون لأنهم يعرفون كل شىء .. فهل كلمات الهندى تدل على الجنون أم على حكمة بالغة ؟

توقفت (ساندرا) فى الظلام ، وقالت :

ـ « (بيلى) .. أنا خائفة .. »

رائحتها تسحره بشكل ما ..

(كانت تنظر للسماء .. وتضم كفيها معًا أمامها .. خطر له أنها تصلى .. ولكن .. لا .. هذا المنظر يبدو مألوفًا .. رآه من قبل ولكن أين ؟)

قالت وهى تدنو منه :

ـ « أريد أن أشعر بقربك .. إن هذا يمنحنى الأمان أكثر .. »

هل هو يحلم ؟ اللحظة التى حلم بها دهورًا تتحقق الآن .. ربما تصور أن يمسك القمر ويقضم منه قطعة أو يلعب البيزبول ببرج إيفل .. لكنه لم يتصور قط أن ..

تدنو منه .. تمسك بيده .. يجلسان على الأرض فى الظلام .. يغمض عينه .. إنها قريبة جدًا .. قريبة جدًا .. فلتحملنى يا بساط الأحلام لأعلى .. لأعلى .. إننى خفيف الوزن .. إننى أحلق ..

ثم أدرك أن هناك شيئًا خطأ .. إنها قوية جدًا .. أقوى بالتأكيد من قدرات فتاة مراهقة نحيلة .. إنها تثبته على الأرض كأن عملاقًا يدوس عليه بقدمه .. لم يدرك هذا إلا حينما حاول أن يتملص .. قبل هذا بثانية كان مستسلمًا فكانت رقيقة هشة ..

وفى اللحظة التالية أدرك أن (ساندرا) غريبة المنظر جدًّا .. إنها تنظر للسماء وتفتح فمها .. إن رأسها يتلوى فى اتجاهات غريبة .. (هارلسون) لم يكن وحيدًا عندما مات .. لم يكن وحيدًا عندما انتزع أحدهم عنقه ورأسه وأعلى صدره .. (ساندرا) كانت هناك ..

وهى الآن معه ..

« إنها الحشرة الوحيدة القادرة على أن تبصر ما وراء كتفها .. وأن تمسح وجهها بيديها كالقط .. وتأكل من يدك كالكلب .. وتشرب الماء كالخيول ! »

كانت يده تعبث فى جيبه ..

بسرعة .. قبل أن ..

وخرجت يده بالمسدس الثقيل المرعب الذى كان ضمن حاجيات أبيه .. المسدس الذى أحضره معه على سبيل الاحتياط ..

صوبه بيد واحدة إلى الرأس المخيف الذى يتلوّى فوقه والذى يتجه إلى عنقه .. يده ترتجف .. لا وقت لهذا ..

ضغط الزناد .. و ...

بوم !!

* * *

-5-

الصوت يتعالى أكثر فأكثر ..

كان هناك صوت طلقات جاء من الخارج .. ربما من جهة المستنقعات .. هذه هى المرة الثانية .. ثلاث ساعات تفصل بين المرتين .. يبدو أن هناك حربًا تدور بالخارج فى هذه اللحظة ..

ثم بعد قليل سمعت طلقة واحدة من مسدس ..

هناك الكثير من المرح ينتظرنا بالخارج .. حفل حقيقى يشبه أفراح الأرياف .. لن أندهش لو كانت الأفراس ترقص .. أفراس النبى .. تضم أكفها وتنظر للسماء وتلتهم حناجرنا ..

كنت أنا فى غاية القلق ، وقد قمت بجولة أو اثنتين فى المنطقة التى أنتظر فيها .. قلت لنفسى إنه إذا كان (هارى) و(شوارتز) قررا الاستكشاف الرأسى فلأقم أنا بالاستكشاف الأفقى ..

هكذا أخذت خوذة مضيئة وبحثت حتى عرفت كيف أشغلها ، ثم رحت أجول فى المنطقة محاذرًا .. مشيت وراء

أحد تلك الخراطيم العملاقة .. وبعد قليل من الزحف المتعثر والاصطدام بصخور والسقوط فوق صخور وجدت تلك الكومة من الصخور ..

وقفت ألهث مسرورًا باكتشافى العظيم .. كومة صخور وسط الصخور ! أنا عبقرى حقًا ..

لكن هذه الكومة كانت تبدو لى عظيمة الشأن .. كومة صخور ذات شخصية واضحة .. ترتفع إلى السقف وبدا واضحًا أنها وضعت هنا لغرض عبقرى ..

تلك الرائحة !! مع الاعتذار للأديب (صنع الله إبراهيم) ..

رفعت صخرة من تلك يبلغ حجمها حجم رأسى وألقيت بها بعيدًا .. كانت مبتلة .. وعلى ضوء الكشاف الواهن استطعت أن أدرك أنها كان تدارى يد جثة ..

كنت دومًا أرى أن الجثث مملة .. فى أفلام الرعب يضعون الكثير منها كى يضمنوا أن يرتجف المشاهد .. وكنت أشعر أن هذه محاولات طفولية رخيصة ، دعك من أننى طبيب رأى الكثير من الموت .. لكن هذه اليد بالذات أفزعتنى لأنها

كانت متحورة لشىء آخر .. هناك شعيرات وممصات .. إنها يد تنتمى لهم .. لهم لا عليهم ..

أزحت صخرة أخرى فوجدت قدمًا لا تنتمى لهذه اليد .. هناك جثتان على الأقل ..

ما معنى هذا ؟؟ هناك من مات منهم وهذا قبرهم .. ليس الأمر عجيبًا بالنسبة لمن يعرف أى شىء عن الحشرات .. فهى تتكاثر بإفراط وتموت بإفراط .. ولو تركت ذبابتين وشأنهما لتغطت الأرض بطبقة سمكها متران من ذريتهما .. دعك من أن الحشرات تأكل بعضها طيلة الوقت ..

لكن ليس بهذه السرعة ..

هل الوباء ينزاح ؟ هل بدأ الكابوس وانتهى بذات السرعة ؟ لا أصدق هذا ..

فجأة بدأ المنجم يرتج ..

★ ★ ★

ارتفع المصعد ..

وتنهدت الصعداء .. لقد انتظرت كثيرًا جدًا حتى قدرت أنهما لن يعودا أبدًا وقررت أن أعود وحدى للبلدة .. لكن ماذا سأفعله هناك ؟ من أطلب عونه وكيف ؟ ثلاث ساعات فى هذا المكان ليست بالفترة القصيرة جدًا .. حتى تخيلت أن لى لحية بيضاء تتدلى على الأرض ..

فى ضوء المصابيح الخافت رأيت الآلية المعقدة العتيقة للمصعد تلهث منذرة بالسقوط .. ثم بدأ القفص الحديدى يظهر لعينى .. لو كان هذا فيلم رعب ردىء لرأيت فى المصعد شيئًا آخر لا يمت لصديقى بصلة ..

لكنى أخيرًا رأيت الرجلين .. كانا مرهقين متربين مبتلين .. لكنهما على الأقل لا ينزفان لحسن الحظ .. وعلى الأرجح لم يتحولا إلى صرصورين ..

وفتح (شوارتز) الباب ثم ارتمى على الأرض .. ومن خلفه جاء (هارى) .. وسقط الرجلان على ظهريهما يلهثان ويسعلان ..

قلت فى دهشة :

ـ « ثلاث أو أربع ساعات .. حسبت أمركما قد انتهى ! »

سعل (هارى) وبصق ثانية ، وقال :

ـ « تقريبًا ! إن ما يجرى فى أعماق المنجم لشىء مريع .. شىء أكبر من توقعاتنا .. لا حل لهذه البلدة إلا قصفها بالقنابل من الجو ! »

★ ★ ★

الطلقات من جديد ..

نطفئ الخوذات ونزحف إلى خارج المنجم لننظر من عل إلى ما يجرى .. نحن الآن فوق الجسر .. من تحتنا نرى تلك المساحة الخالية التى تذكرك بأفلام الغرب الأمريكى .. مدثرة بالظلام لكن ضوء القمر ما زال كافيًا ..

كان رجال (فينكس) هناك .. وكانوا فى مأزق حقيقى ..

أرى الآن أنهم هناك فى الساحة .. بعضهم على الأرض والبعض يتوارى خلف الصبار أو خلف الصخور .. أشباح مذعورة فى الظلام ..

هناك أشياء تهاجمهم .. أشياء تمشى فى ثقة وتركض هنا وهناك .. تبدو تارة كرجال وتبدو تارة أخرى كحيوانات زاحفة .. برغم صعوبة الرؤية يسهل أن ترى أن بعض هؤلاء الرجال لهم رءوس عملاقة .. رءوس بحجم الصخرة بلا أية مبالغة .. وهم يقومون بالجزء الأكبر من الهجوم .. ينقض بعضهم على الرجال فلا تعرف ما يدور .. عملية التحام جسدى كاملة لكنها تنتهى بجثة لا تعرف حدودها الخارجية .. جثة الرجل طبعًا ..

بعض الرجال يحاول أن يطلق الرصاص من بنادقه .. بالفعل يتساقط عدد لا بأس به من المهاجمين بكسر الجيم ، لكنهم لا يقنطون .. مهما سقط منهم يواصلون الهجوم كما يفعل الـ ...

كما يفعل النمل !!!

إن تلك الأشياء المهاجمة تزحف .. والآن صارت الصورة تمثل مئات منها تتقدم لتكتسح كل شىء ..

عشرون رجلاً مسلحًا من (فينكس) . أضف لهذا عشرة مفوضين .. لكن هذا كله تحول إلى مذبحة .. يشبه الأمر ما يتبقى من مستعمرة نمل وطأتها بحذائك .. فقط انعكست الآية هنا ..

صوت القضمات يصيبك بالغثيان .. تشومب .. تشومب !

تشومب .. تشومب !

تشومب .. تشومب !

لا أظن أن أحدهم تمكن من عمل شىء .. إن الكثرة تغلب الشجاعة .. ولربما استطاع الرجل قبل موته أن يقتل عشرة منها لكن ما جدوى ذلك ؟

همس (شوارتز) وهو يرتجف :

ـ « جيش من النمل المحارب ! هذا واضح ! »

ثم أردف :

ـ « بالإضافة لحمض الفورميك ، هناك تأثير الفكوك العملاقة .. لو صارت النملة المحاربة بحجم الإنسان لصار رأسها بحجم جوال البطاطس ، وصارت المسافة بين فكيها ستة أقدام (مائة وثمانين سنتيمترًا) ! »

وارتجفت .. معنى هذا أنها قادرة على قضم إنسان إلى شطرين ..

هذا هو ما يحدث فعلاً وإن كنا لا نراه بوضوح ..

هذا هو سر الطلقات إذن .. كانت بدايات الغيث ثم انهمر السيل ..

قال (شوارتز) :

ـ « عندما يزحف النمل المحارب فى إفريقيا يبلغ طول الطابور ميلاً .. يترك السكان أكواخهم ويفرون إلى أقرب حاجز مائى .. وعندما يعودون للأكواخ يجدونها وقد تم تنظيفها بالمعنى الحرفى للكلمة .. »

كانت هناك أشياء لا أميزها تحوم فى الهواء .. إن الظلام دامس .. لكنها تنقض وترتفع من جديد .. ولانقضاضها أزيز مميز .. أزيز مألوف تسمعه أنت الآن لو كنت تقرأ هذا الكتيب فى ليلة صيف حارة .. شتان ما بين أزيز وأزيز لكن المبدأ واحد !

تساءلت فى رعب عن كنه هذا ..

قال (هارى) وهو يزحف متراجعًا :

ـ « بعوض على الأرجح !! هذا الجيش لا يفتقر للقوات الجوية ! أرى أن علينا أن نفر من هنا فقد صرنا هدفًا سهلاً ! »

ـ « فلنعد إلى المنجم .. »

ـ « لا !! كل شىء إلا المنجم وسوف نخبرك بالسبب !! »

★ ★ ★

-6-

« جونى .. أمسك بالقوس واعزف كمانك جيدًا ..

إن الجحيم قد تفجر فى (جورجيا) والشيطان يوزع أوراق اللعب ..

فلو فزت لربحت هذا الكمان الجميل المصنوع من الذهب ..

ولو خسرت لظفر الشيطان بروحك ! »

★ ★ ★

شعور ممض بقرب النهاية ..

نعم .. على الأرجح هى النهاية .. سنموت جميعًا لا شك فى هذا .. فقط كنت أتمنى ميتة أكثر وقارًا .. لن يفخر أبناء أخى عندما يحكون كيف أن عمهم قتلته نملة ..

نمشى وسط الأخاديد .. نتعثر وننهض .. ليس بوسع قلبى تحمل أكثر من هذا .. لو لم تأكلنى السراعيف لالتهمتنى اليعاسيب أو الدعاسيق .. ظريفة مملكة الحشرات هذه .. أسماء جميلة جدًا ..

الظلام دامس بحق برغم وجود القمر .. هذه الأخاديد مليئة بالظلال الخادعة .. يبدو أننا نسينا أن ننزع الخوذات .. هل نضيئها ؟ هذا قرار خطر لأن كل الحشرات تعشق النور وتجده ببراعة غير عادية ..

المشكلة هى أن هذه الأخاديد متاهة حقيقية .. سوف نضل الطريق .. لا شك فى هذا ..

فجأة اصطدمنا بشىء فى الظلام .. وحدث التحام سريع .. لا أعرف هل ضربناه فأوقعناه أرضًا أم العكس .. المهم أننا وجدنا أننا على الأرض نمسك بقدميه وهو يركل كالثور البرى ..

كان هذا هو (بيلى) .. الفتى المراهق ذى العوينات والنمش .. لقد فقد كل شىء لكنه احتفظ بالنمش .. فقد عويناته وعقله على الأرجح ..

ـ « اتركونى ! لن أتكلم !! »

ثم بدأ يصرخ .. أكره الأغبياء الذين يسمحون لهستيريتهم بأن تؤذى الآخرين .. هذا أسوأ وقت ممكن للصراخ .. سوف تجلب علينا كل هذه المسوخ يا أحمق ..

هكذا توكلت على الله وسددت له صفعة آذت كفى كثيرًا ..

نظر لى بذهول للحظة ثم انفجر فى البكاء كطفل ..

ـ « هلم .. نحن مثلك بشريون .. وضائعون .. وفى مأزق بالغ السوء !! »

بدأ يهدأ نوعًا .. ثم استطاع أخيرًا أن يحكى لنا كل شىء .. (ساندرا) كان تريد قضم رأسه .. المأمور مات .. وجده فى خندق وقد اخترقته الطلقات لكن من حوله يرقات ميتة .. هناك هندى مجنون .. الاجتماعات الليلية .. المشهد المرعب الذى رآه هو و(ساندرا) و(هارلسون) و(جيمى) .. الرجال الذين يعلقونهم من أقدامهم ويتجه كل واحد من تلك الجماعة ليمتص شيئًا من بطونهم عبر ثقب صغير ..

صحت فى هلع :

ـ « ماذا ؟ هل جننت ؟ »

ثم وجدت أن كل شىء ممكن الآن .. هذا كابوس .. ولا منطق للكوابيس ..

قال (شوارتز) فى هدوء بلهجة من لم يندهش من هذا :

ـ « (كلاريسا) قالت هذا للقس .. إنه موجود فى مفكرته .. »

ورأى الاشمئزاز على وجوهنا ، فقال :

ـ « بالنسبة للبشر هذا سلوك بشع .. بالنسبة للنمل هذا طبيعى جدًا .. بعض أنواع الشغالة تختزن الرحيق فى بطونها وتتحول إلى براميل حية .. تعلق نفسها طيلة الوقت فى سقف العش ، بينما تمر كل الشغالات الأخرى لتأخذ منها جرعة .. وعندما تفرغ يملئونها ثانية .. »

قال (هارى) :

ـ « أى إنها تحول نفسها إلى ماكينة مشروبات .. »

ـ « بالضبط .. لاحظ أننى أتكلم عن النمل ولم أخلط بينه والنحل .. »

قال الفتى الذى فقد صوابه من الذعر :

ـ « رحت أجرى خائفًا وتواريت بين أغصان شجرة .. ورحت أنظر من بينها بحثًا عن خطر قريب .. هنا فوجئت بهذه الأغصان تتحرك .. كان هذا رجلاً شديد النحول اندس

بين الأغصان بحيث صار من المستحيل أن تميزه إلا إذا تحرك .. أوشكت على الصراخ فانطلق سائل حارق على وجهى .. لولا العوينات لأصابنى بالعمى .. لكننى رحت أجرى وأصرخ وتخلصت من العوينات الملوثة .. فذلك السائل بدأ يسيل على وجهى ويحرقه .. أصابنى الذعر لأننى لم أعد أرى تقريبًا وكان هذا حينما اصطدمت بكم .. »

عدنا ننظر إلى خبير الحشرات .. فقال فى ملل :

ـ « هذا نوع من العصى الرحالة .. لكن هذه الحشرة موجودة فى الأريزونا من قبل هذا الكابوس .. اسمها (فرسة السمك) .. إنها تدافع عن نفسها بإطلاق هذا السائل فى عيون الطيور »

تشومب .. تشومب !

سمعنا الصوت المميز الذى اعتدناه .. صوت القضم ..

تشومب .. تشومب !

تشومب .. تشومب !

تشومب .. تشومب !

قال (هارى) وهو ينهض :

ـ « الرجال النمل .. إنهم قريبون .. يجب أن نفر .. »

قال (شوارتز) :

ـ « أين ؟ إنهم يصلون لكل شىء .. سوف يجدوننا فى أى مكان . »

تشومب .. تشومب !

تشومب .. تشومب !

قلت أنا فى غيظ :

ـ « أنت قلت بنفسك أن الأهالى يهربون خلف مجرى مائى .. سوف نفترض أن هذه الحشرات تتصرف حرفيًا كالحشرات الأصلية .. يجب أن نجد ماء ! »

★ ★ ★

أين أنت ؟ أين أنت ؟

ليس من العدل أن تتخلى عنى بعدما طلبت اللقاء فى أسوأ بقاع الأرض ..

★ ★ ★

ومشينا وسط المياه ..

مياه باردة تصل لخصرك .. لكنها ليست أبرد من جثتك على كل حال ..

يبدو أن هذا النهير واحد من تلك الأخاديد التى جفت فصارت مخالب الشيطان .. لكن هذا النهير الراكد سوف يجرى إلى أن يصب فى نهر (جيلا) الذى يصب بدوره فى (كولورادو) .. أعتقد أنه بالفعل يصلح حاجزًا يبعد النمل عنا ..

السكون والهدوء .. لا شىء إلا هذه الأغصان الطافية ، وقد خطر لى أن هذا هو المقلب المعتاد .. وسألت الفتى :

ـ « هل أنت متأكد من أن هذه ليست تماسيح ؟ لم أعد أثق بجذوع الأشجار الطافية هذه »

ـ « لا توجد تماسيح فى ولايتنا يا سيدى .. »

قالها باشمئزاز كأنه أهين ..

السكون وضوء القمر والماء البارد .. كل هذا يغريك بالنوم لكن هيهات ..

سألت (شوارتز) بصوت هامس كى لا أتلف هذا السكون :

ـ « الآن يمكن أن أفهم ما رأيتم فى ذلك المنجم .. »

قال وهو يتنهد :

ـ « هى قصة طويلة .. »

★ ★ ★

قال (شوارتز) :

ـ « لقد نزلنا بالمصعد عدة طوابق .. لكننا لم نجد ما يدل على وجود عمل بالمنجم .. أنا متأكد من أنه ليس مهجورًا .. لسبب ما تم إخلاؤه .. فى النهاية استقر المصعد عند آخر مدى له .. الهواء ثقيل مسمم .. لكن هناك جهاز تهوية يؤدى عمله نوعًا ..

« كان المكان خاليًا لكننا شعرنا بأن هناك وجودًا ما .. هكذا مشينا بحذر .. مشينا بضع دقائق حتى وجدنا أنفسنا فى مكان متسع .. عندها حبسنا أنفاسنا وأطفأنا الكشافات ، لأن كل هؤلاء القوم كانوا هناك .. الرجال والنساء الذين

كانوا يلتقون أمام المنجم هم الآن تحت الأرض بخمسين مترًا .. كانت هناك نار مشتعلة ولا أعرف كيف لم يختنقوا .. لم أعرف أنه من الممكن إشعال النار فى المناجم ، لكنهم كانوا يقفون حولها وينشدون متشابكى الأيدى .. كلمات الأغنية بالإسبانية .. عندها بدأت أفهم ..

« فى الوسط كان يقف من هو أشبه بكاهن .. تحيط به الحشرات الطائرة . الكثير من الذباب .. رجل فارع القامة يلبس الأسود مع غطاء رأس لا تراه إلا لدى (الأزتك Aztec) .. »

ارتجفت وقد شعرت بأن هذا كله مألوف لى ..

أسود ..

أزتك ..

ذباب ..

ملك الذباب .. (رى دى موسكاس) .. لقد شهدت عودته لعالمنا .. المكسيك يقع على مرمى حجر من هنا .. (أريزونا) مكسيكية أكثر منها أمريكية .. هل هذه مصادفة ؟

لكن القصة مترابطة نوعًا الآن .. ما يحدث هنا هو لعنة .. ومن يمكن أن يجلب اللعنة ؟

عاد (شوارتز) يقول :

- « إن كل ما يجرى هنا هو إعداد ليرقة .. »

- « يرقة ؟ »

- « نعم .. يرقة .. يرقة يبلغ حجمها حجم الحافلة .. إنها هناك فى مركز الدائرة وقد رأيناها .. حاليًا هى لا تفعل أى شىء لكنهم يغذونها ويرعونها وينتظرون تحورها ليخرج منها .. »

- « من ؟ إبليس ؟ »

- « بل (خوتشيكويتزال Xochiquetzal) .. آلهة الحشرات عند الأزتك ! »

قلت فى اشمئزاز :

- « لن نعود لهذا الهراء الوثنى .. »

قال فى صبر :

- « نعم .. أنا أتفق معك .. (خوتشيكوبتزال) لا وجود لها .. لكننا أمام حقائق مادية هى وجود يرقة عملاقة فى مرحلة تحول .. ووجود رجال لم يعودوا كذلك .. هذا لا يبرهن عن وجود آلهة حشرات .. لكنه بلا شك يدل على أننا فى مأزق مخيف غير معتاد . »

ساد الصمت .. لا شىء فى الهواء .. حتى صوت الطبول الذى لم تمر دقيقة من دون أن نسمعه قد صمت ..

قلت له :

- « ليكن .. هذا هو السبب الذى تحول من أجله المنجم إلى خراب .. »

- « أعتقد أن العدوى بدأت بعمال المنجم .. لكن دعنى أحكى منذ البداية . »

نظرت إلى حالتنا المزرى .. ستكون هذه أول محاضرة أسمعها وأنا نصف غائص فى الماء .. لكن تفضل يا سيدى .. أطربنا ..

قال العالم :

- « لقد كانت الحشرات تفتن البشر منذ قديم الزمن .. خاصة فكرة التحول .. إنها ترمز للخلود فى كل الثقافات القديمة .. أنت مصرى وتعرف أهمية الجعران scarab لدى المصريين القدماء .. كانوا يرون هذه الخنفسة تتحور وتغير شكلها .. ثم كانوا يرونها تدحرج كتلة من الفضلات نحو الشرق مما جعلهم يعتقدون أنها هى التى تقود (رع) أى قرص الشمس .. ثم لاحظوا أن اليرقات تظهر حول المومياوات بكثرة .. بعد هذا يطير الذباب مبتعدًا قبل أن تدفن المومياء .. لهذا ربطوا بين الذباب والروح .. ولهذا كانوا يضعون حليًا تشبه الذباب فى القبور وحول عنق المومياء كأنها وسيلة لتسهل عودة روحه له .. فى ثقافة قدماء المصريين كان النطاط يرمز إلى الجنود والنحل يرمز إلى الدلتا ..

« الصينيون كانوا مفتونين بالسيكادا أو جرادة السبعة عشر عامًا .. يرونها رمزًا حقيقيًا للتجدد .. إن خروجها للحياة يشبه الخروج من القبر .. وقد نقلوا هذا الافتتان للهندوس ..

« إن كل الحضارات القديمة قد اهتمت بالحشرات .. تذكر الرجال العقارب فى ثقافة البابليين .. عند قبائل البوشمان يعتبرون فرس النبى إلهًا اسمه (كاجن) ..

« فى التوراة تجد أن ثلاثة من أوبئة مصر القديمة كانت من الحشرات .. لست ملمًا بالقرآن لكن أعتقد أن الحشرات لها أهمية خاصة فيه .. »

لم أعلق حتى لا أقاطعه .. لكن الحشرات ذكرت فى القرآن الكريم مرارًا .. النمل .. النحل .. الذباب .. بل إنها وجدت طريقها إلى أسماء السور .. الذباب ذُكر كتحد للكفار .. النحل ذكر كمعجزة دائمة .. هناك أكثر من قصة قرآنية عن النمل ..

واصل (شوارتز) الكلام :

ـ « أنت طبيب .. فهل تعرف من أين جاءت لفظة Medicine ؟ »

ـ « ليست لدى أدنى فكرة »

ـ « جاءت من لفظة Mead .. وهو مشروب ذو خواص علاجية يستخلص من عسل النحل .. الهنود الحمر كانوا يعتقدون أن الفراش يجلب الأحلام .. بالذات قبائل القدم السوداء كانوا يعتقدون هذا .. وكانوا يرسمون الفراش على خيامهم على شكل يذكرنا بصليب مالطة .. لكن رأيى

الخاص أنه ما من حضارة اهتمت بالحشرات للدرجة التى اهتم بها الأزتك ومن بعدهم المكسيكيون .. إله الأزتك الأكثر أهمية بالنسبة لهم (كويتزالكوتل Quetzalcoatl) يدخل العالم على شكل يرقة ومنها يخرج على شكل دودة أو أفعى .. لم يكن يحمل الزهور إلا الأزتك من ذوى المكانة العالية .. وفى حضارتهم كان من سوء الأدب أن تشم باقة الزهور من أعلاها إنما يجب أن تشمها من جانبها .. السبب هو أن النحل والفراش أرواح .. وهى تفضل أن تشم قمة باقة الزهور ..

« حتى اليوم يعتقد المكسيكيون أن النحل يولد من الجثث .. وهو خلط بين النحل وذبابة الفرس على كل حال .. والآن لاحظ أن هذه الولاية شبه مكسيكية من ناحية الثقافة على الأقل .. منذ جاءها (ماركوس دى نيزا Marcos de Niza) وهو أول أوروبى يطأها بقدمه فى القرن السادس عشر .. لقد جاءها من ناحية المكسيك »

ساد الصمت .. ثم عدت أسأله :

ـ « لماذا تحكى هذا كله ؟ »

ـ « لأقول إن القصة جاءت عبر الحدود من المكسيك .. هذا الرجل الغريب الذى رأيناه فى أعماق المنجم جاء ينشر سحره فى البلدة كلها .. وجمع حوله جماعة من الناس همهم أن يوفروا البيئة الصالحة لتلك اليرقة التى يعتقدون أنها (خوتشيكويتزال) .. وفى الوقت ذاته استطاع بسحره الذى تعلمه من أجيال من الأزتك أن يحيل أهل البلدة الذين حضروا طقوسه إلى أطلس حقيقى لعلم الحشرات .. سوف تجد كل شىء هنا .. الذباب .. الخنافس .. الدبابير .. النحل .. النمل .. العصى الرحالة .. ذبابة مايو .. أى شىء .. عندما ينهض الأخ (خوتشيكويتزال) سيجد أن الحشرات سيطرت على العالم وأن الزمن زمنه »

هنا تساءل (هارى) :

ـ « لماذا لم نلق عناكب ؟ »

كان هذا أسوأ ما يقال .. ألعن شىء فى العالم هو السؤال الغبى الذى تمت الإجابة عليه من قبل .. بالذات فى الفصل الأول من الجزء الثالث .. لهذا لم يكلف أحدنا نفسه عناء الرد ..

الآن جاء السؤال المهم بحق :

ـ « ماذا نفعل ؟ »

فى هذه اللحظة همس (هارى) مذعورًا :

ـ « هل أرى ما أراه أم إنها البارانويا ؟ »

نظرنا إلى حيث أشار فلم نر شيئًا ..

لا .. بل هناك شىء .. تلك الأغصان التى تطفو على السطح .. إنها تتحرك .. إن شيئًا يخرج منها ويحاول أن يحرر جناحيه .. لو دققت النظر لأدركت أن هذه الأشياء هى أقرب لبشر كانوا تحت الماء فلا يبرز منهم إلا جزء بسيط ..

إنها حوريات بعوض !!

* * *

-7-

عشرات من هذه الأشياء تضرب الماء محدثة دوامة ثم تتحرر وتحلق فى الظلام فوق رءوسنا ..

البعوض قد وضع بيضه فى هذا الماء الراكد .. وفقس البيض لتبدأ دورة الحياة الرهيبة .. الآن يخرج الصغار محلقين جائعين يفتشون عن أول وجبة من الدماء ! ..

كنت على حق عندما فكرت فى التماسيح التى تبدو كجذوع أشجار .. وإن كان الأمر يختلف هنا ..

دورات الحياة تتم هنا بسرعة فائقة .. والمشهد كابوس حقيقى .. فى الأساطير الإغريقية كان (الهاربى Harpy) .. تلك المخلوقات التى تبدو كبشر لكنها مجنحة .. أنا لا أرى المشهد جيدًا لكن هذا هو الإيحاء العام له ..

إنها ترتفع .. ومعها توشك قلوبنا على الإفلات ..

كدنا نخرج من الماء ، لكن (شوارتز) قال فى حزم :

ـ « ابقوا حيث أنتم ! حاولوا أن تبقوا أكثر جزء من الأجساد تحت الماء .. إنها تبحث عن الرائحة البشرية والحرارة .. »

كان هذا منطقيًا .. وركعت على ركبتى فى الماء الضحل بحيث لم يبق منى فوقه إلا رأسى .. وكذا فعل الآخرون .. وبعد قليل بدأت تلك الأسراب تبتعد ..

ـ « الآن نخرج .. »

وببطء رحنا نتقدم إلى الضفة متوقعين كارثة أخرى .. فقط من حين لآخر تدوى طلقة تعنى بلا شك أن أحد رجال (فينكس) يدافع عن نفسه ..

على الضفة جلسنا منهكين .. لولا هذا الصيف الهندى لأصبت بالتهاب رئوى ..

عدت أكرر سؤالى وأنا أبصق وأسعل :

ـ « ماذا نفعل الآن ؟ »

قال (هارى) وهو يجفف شعره المبتل الذى غطى وجهه :

ـ « الأمور ستتحسن بلا شك .. سوف يعرفون فى (فينكس) ولسوف تصل قوات الجيش .. هذه المرة سوف يكون تدخلهم حاسمًا .. بالفعل لا أستبعد أن يقوموا باستخدام الطيران لدك البلدة .. »

ثم أضاف باسمًا :

ـ « أو ربما استعملوا المبيدات الحشرية ! »

قال (شوارتز) :

ـ « هذا سيحدث لا محالة . لكن حتى ذلك الحين سوف ينتهى أمرنا .. دعك من أنهم لن يفرقوا بيننا والآخرين .. »

وشعرت بقشعريرة .. فى فيلم (ليلة الموتى الأحياء) ـ تحفة (روميرو Romero) الكلاسيكية ـ ظل رجل واحد حيًا بعدما رآه من أهوال ، إلا أنه فى الصباح كان مرهقًا متربًا مشعثًا .. وسرعان ما أطلق عليه رجال الإنقاذ النار لأن منظره لم يختلف عن منظر الزومبى ..

« الحل فى المنجم .. »

راحت الإجابة تتردد فى ذهنى ..

إذن نحن نضيع وقتنا هنا ..

« الحل فى المنجم ..

« لماذا مات من مات ؟

« فكر كثيرًا ..

« على باب الجحيم تجد المطهر .. »

هذه هى الإجابة .. إنها ترسلها لى .. قالت إنها لن تساعدنى .. لكنها قادرة على التلميح ..

قلت لهم بثقة :

ـ « سوف نعود للمنجم .. إن الحل هناك .. »

قال (هارى) فى شك :

ـ « لا أعرف من أين تأتى بهذا التفاؤل يا صاحبى ؟ المنجم صار بالكامل محتلا بتلك الكائنات .. وهناك تلك البرقة القذرة .. إن العودة هناك خطر داهم .. »

ـ « أنا مصر .. لو أردت ألا تتبعنى فهذا شأنك .. »

ونهضت فى إصرار .. هكذا نهض الجميع معى .. لا أحد يشتهى الوحدة الآن .. فرصة نجاة الرجل الوحيد معدومة فى عالم يعج بالبعوض والصراصير والذباب والزنابير والنحل والخنافس القاتلة ..

* * *

كانت تقف على باب المنجم .. مسربلة بالظلام .. على بعد أمتار منها أسفل الجسر بقايا المذبحة التى قام بها النمل ، ولا بد أنه مشغول بنقل كل هذا الطعام إلى عشه ..

لم نتبين وجهها أولاً .. وتحفزنا .. ثم دنونا أكثر فوجدنا أنها (باتريشيا) .. ساقية الكافتيريا الحسناء ..

ـ « (باتى) !! »

قالها (هارى) وهو يركض نحوها ..

صحت وأنا أشده بعيدًا :

ـ « ما زلت أحمق .. خذ الحذر .. أولاً كيف عرفتْ أننا هنا ؟ ثانيًا كيف جاءتْ ؟ »

صرخ (بيلى) فى رعب :

ـ « كل النساء خطرات يا سيدى .. إنهن يتحولن إلى سراعيف ! »

فى برود ظلت تصغى إلى ما نقول ، ثم قالت :

ـ « هل انتهيتم ؟ هل لى أن أتكلم ؟ »

ـ « تكلمى .. لكن لتكن أعذارك مقنعة .. »

قالت وهى تجيل نظرها فى وجوهنا :

ـ « منذ البداية عرفت أنكم ذاهبون إلى المنجم .. كل هذا الهراء الصبيانى الذى قمتم به لم يخدعنى .. سمعت أكثر كلامكم وسمعت ما يقول الناس .. هذا يجعل الأمور واضحة .. ثانيًا لم أستطع البقاء وحدى فى الموتيل إلى أن يتسلل شىء عملاق يلتهمنى .. إن البلدة قد تحولت إلى جحيم .. كنت بحاجة إلى صحبة أشخاص لم يتغيروا .. وهكذا خاطرت بهذه الرحلة المرعبة إلى هنا .. ليس الأمر صعبًا إلى هذا الحد والدليل أنكم بدوركم ما زلتم أحياء .. »

رحت أتأملها .. تبدو لى طبيعية فعلاً .. جميلة باردة سمجة ..

ربما كان صادقة .. من يدرى ؟

همست فى أذن الفتى (بيلى) :

ـ « أنت تملك مسدسًا .. راقبها .. لو رأيت ما يريب فلتطلق الرصاص حالاً وبلا مناقشة »

هز رأسه فى توتر .. وابتلع ريقه .. لكنى كنت أعرف أنه سيفعل .. انفلات أعصابه سيجعله يطلق النار بلا تردد .. المهم ألا يفعل ذلك لأنها هرشت أنفها مثلاً ..

فى ظلام المنجم وإضاءته الخافتة وقفنا .. كنت أفكر ..

واتجهت فى تؤدة إلى كومة الصخور التى رأيتها من قبل ومددت يدى أحرر تلك الذراع التى وجدتها .. الذراع المتحورة التى كانت تخص حشرة من تلك ..

« الحل فى المنجم .. »

« لماذا مات من مات ؟ »

هتف (هارى) فى رعب :

ـ « هل هناك مقبرة هنا ؟ »

ـ « مقبرة نعم .. لكنها تخص هؤلاء المتحولين .. »

ـ « ولماذا ماتوا ؟ »

ـ « هذا هو السؤال الذى تستحق إجابته ملايين الدولارات .. »

ثم فكرت من جديد .. رحت أداعب صلعتى بعدما نزعت الخوذة .. لكنى لا أجد شعرًا أفركه للأسف .. كان هذا كفيلاً بأن

ينشط التفكير .. « على باب الجحيم تجد المطهر .. » ما معنى هذا ؟

قالت(باتريشيا) وهى تمسك بتلك الذراع الميتة :

ـ « ربما انتشر بينهم مرض ما ؟ »

ثم نظرت إلى (شوارتز) ، وقالت :

ـ « هل تلك البكتريا المستعملة فى التعدين تفتك بهم ؟ »

هنا فقط وجدت الحل ! البكتريا تدعى (أسيديانوس أنفرنوس) .. المقطع الأخير معناه (الجحيم) باللاتينية .. وهو ذاته جحيم (دانتى) الشهير .. « على باب الجحيم تجد المطهر .. »

البكتريا هى الحل فعلاً .. هذه المخلوقات التى هلكت تلوثت بالبكتريا فلم تتحملها .. من الواضح أن هذه البكتريا قاتلة بالنسبة لها بينما لا تؤثر فى البشر على الإطلاق .. ولهذا فإن مجتمعهم ويرقتهم فى قاع المنجم بعيدان بالتأكيد عن أى أثر لهذه الكائنات الدقيقة ، والدليل أن الخراطيم لا تغذى هذا الجزء على الإطلاق ..

* * *

« راح ينظر حوله ووقعت عيناه على صهريج كبير تخرج منه مجموعة من الخراطيم الغليظة تتلوى أرضًا وتتجه إلى أعماق المنجم .. لا يمكن أبدًا أن تعرف أين توجد نهاياتها .. »

« التقط خوذة ذات كشاف ، وأضاء هذا الأخير ، ثم قال وهو يصوب النور إلى هذه الأشياء : »

ـ « هل ترى هذا ؟ هذا المحلول يحوى البكتريا التى حكيت لك عنها .. إنهم يغرقون المنجم به ثم يتركونه يتفاعل .. بعد هذا يشفطون السائل وينزل الرجال للبحث عن النحاس الذى فصلته البكتريا .. »

★ ★ ★

صحت فى الرجلين اللذين يقفان معى :

ـ « هلما ! سوف نوجه هذه الخراطيم لتملأ المكان الذى يحتله المصعد .. إنها معدة لتتدفق فى موضع آخر .. لكننا سنغير هذا ولسوف نفتح هذه الخزانات ! »

قال (شوارتز) فى استخفاف :

ـ « هل ستغرق المنجم بالماء ؟ هذا لن يؤثر فيهم .. إن الحشرات أقدر الكائنات على التكيف .. هل حاولت مرة أن

تغرق صرصورًا فى بالوعة الحمام ؟ هل سكبت بعض الماء على نملة ورأيت كيف تتحرر وتجف بعد دقائق ؟ »

قلت وأنا أتجه إلى الخراطيم :

ـ « لا أتكلم عن الماء .. أتكلم عن الجراثيم السابحة فيه .. هلما ! »

ـ « ليس لديك دليل .. »

ـ « لدى أكثر من دليل .. لكن لا تضيعا الوقت فى الشرح .. »

وببطء بدأت الخراطيم العملاقة تتدلى فى بئر المصعد كأفاع فى الفراغ .. وحاولنا مرارًا حتى استطعنا تشغيل المضخات فتدفق الماء بعنف يهز المنجم هزًا .. خمسة خراطيم تعمل بكل طاقتها لتفرغ الصهريج العملاق .. شعرت بأن كل شىء يوشك على أن ينهار فوق رءوسنا لذا وجدت أن الرحيل أفضل ..

المنجم كله يهتز .. . .

حان وقت الرحيل فورًا ..

وإلا غرقنا وهذا أول الخطرين .. أو خرجت تلك المخلوقات لتفتك بنا .. وهذا ثانيهما ..

★ ★ ★

كان نجاح الخطة باهرًا .. ولم نعرف هذا إلا فى ضوء النهار ..

فى البداية رأينا مستوى الماء يرتفع .. ثم بدأ يسيل من مدخل المنجم .. يتدفق من فوق الجسر إلى الأرض ..

لم يخرج أى شىء حى من الفتحة .. إما إنهم غرقوا وهذا عسير وإما أن تأثير هذه البكتريا فعال حقًا .. فقط أنا أعرف يقينًا أن اليرقة هلكت حيث هى .. لم تكن قادرة على الحركة أو المراوغة .. كانت بطة عملاقة جالسة لا أكثر ..

وفى ضوء الصباح مشينا .. عبرنا منطقة الأخاديد فأثار ذهولنا كل ما رأيناه من مشاهد الموت ..

على جانبى الحفر يرقد الرجال الزنابير يتحسسون أعناقهم وهم يحاولون النهوض من جديد .. ومن حين لآخر يهوى رجل بعوضة ليسقط على بعد أمتار منا .. جثث الرجال النمل ملقاة هنا وهناك ..

تساءل (هارى) وهو يتفحص جثة مخيفة لامرأة نحلة راقدة إلى جانب الطريق :

ـ « ما سبب انتقال العدوى لهم بهذه السرعة ؟ هم لم يمسوا ذلك الماء »

قلت شارد الذهن :

ـ « ثمة احتمال أن التلوث كان عامًا .. ومن الممكن أن هذه البكتريا تنتقل بالهواء كذلك .. يبدو أنها صارت فى كل ملليمتر من هواء البلدة .. الاحتمال الثانى هو أن صلتهم بذلك الساحر فى المنجم انتهت .. لا بد أنه هلك من ثم هلكوا هم أيضًا .. »

عند الظهيرة سيكون كل كائن حشرى فى هذه البلدة قد هلك ..

الخنافس تزحف فى وهن مبتعدة .. بينما فتاة فراشة تقف فوق صخرة وترتجف ثم تسقط ..

قال (شوارتز) :

ـ « برغم أن هذا يعنى الخلاص فإننى لا أحب ما أراه .. كل واحد من هؤلاء كان بشريًا مثلى ومثلك »

قلت فى اقتناع :

ـ « معك تمامًا .. والأسوأ أن هناك جيلا جديدًا نشأ ويلقى حتفه الآن .. »

قال (هارى) وهو يضع يده على كتف (باتريشيا) :

ـ « لا بد لصنع الحلوى من كسر البيض .. »

ناديته من طرف خفى فابتعدت به بضع خطوات عن الباقين ، وقلت له :

ـ « (هارى) .. لا أريد أن أكون كغراب البين .. لكنى أنصحك بأن تترك هذه الفتاة هنا والآن .. إنها ليست كما تعتقد .. »

قال فى غيظ :

ـ « إما إنك عدت إلى البارانويا ، وإما إنك تغار .. »

ـ « لا هذا ولا ذاك .. فقط أنا أنصحك بالابتعاد عنها .. وأنا أعرف جيدًا ما أتكلم عنه .. لن أعطى تفاصيل أكثر .. »

كاد يتكلم فى انفعال عندما دوى صوت ميكانيكى عال يصم الآذان ..

بحثت عن مصدر الصوت فلم أجد ..

رفعت رأسى للسماء فرأيت طائرتين مروحيتين تقتربان ..

وكان عليهما شعار (شرطة ولاية أريزونا) ..

★ ★ ★

قلت لـ (باتريشيا) قبل أن أرحل :

ـ « برغم رأيى السلبى السابق فيك فإن على أن أشكرك .. فلولاك ما كنا هنا .. وإننى لأعتذر .. »

نظرت لى نظرة طويلة مدققة .. ولم تقل شيئًا ..

فقط ابتسمت ابتسامة سريعة مقتضبة من طراز (الآن تراه ـ الآن لا تراه) ثم ابتعدت فى ثبات ..

هنا فقط خطر لى أننى كنت مغفلاً ..

لكن الوقت قد فات لأعلن هذا ..

★ ★ ★

خاتمة

عزيزتى :

من جديد لن أذكر أسماء .. الآن أعرف أن الساقية الحسناء (باتريشيا) مجرد صورة من صورك .. يجب أن أعترف أن الخدعة كانت كاملة ولم أشك فيك لحظة ، بل كنت أقرب إلى الارتياب فيك .. لقد وضعتك منذ البداية فى معسكر المشتبه فيهم .. ولم أفطن إلى أنك أعطيتنى تلميحًا صحيحًا هو الذى قادنا إلى إبادة تلك الأشياء .. ولهذا جئت إلى المنجم وحدك .. لأن اللقاء يجب أن يتم ..

إذن كنت أنت منذ البداية .. أنت (الكينونة) ذاتها .. كنت معى تساعديننى لكنى لم أفهم إلا الآن .. فقط رأيت فيك برودًا وسماجة نفرانى منك ..

على أن هذا نموذج للغباء البشرى المعتاد ؛ فنحن لا نفصل بين الاستلطاف الشخصى والشك .. من لا نحبهم هم على الأرجح أوغاد وقحون وربما أشرار .. وأنا لم أحب (باتريشيا) قط ..

كانت تلك لغة حقيقية وكابوسًا يصعب وصفه .. لكنه انتهى .. لم يجد رجال الشرطة الذين جاءوا بالمئات من (فينكس)

عملا يقومون به .. فمن تحوروا ماتوا .. ومن بقوا أحياء تواروا فى ديارهم مذعورين ..

من المؤسف أن هذه البكتريا السحرية تذيب أحشاء تلك الكائنات ، مما جعل عملية التشريح عسيرة جدًا .. دعك من أن عملية نزح المنجم سوف تستغرق وقتًا .. سوف يجدون الكثير من النحاس وهذا قد يعوضهم عن مشاق استخراج الجثث .

كنت آمل أن توضحى لى ما إذا كان (راى دى موسكاس) هذا قد نجا .. لو كان كذلك فلسوف يعود وينشر المزيد من الرعب .. إنه من أكثر من قابلت من خصوم عنادًا ..

السؤال الثانى هو سبب إصرارك على لقائنا هناك .. هل كان ينبغى أن أقوم أنا بهذا العمل ؟ كان بوسعك أن تلمحى لأحد السكان ليقوم بما قمت به أنا ..

إن ذراعى اليسرى قد التأمت تمامًا .. وهذا يعطينى الفرصة لاستعمالها فى مراسلات قادمة .. فقط أرجو ألا تنسينى ..

بإخلاص :

رفعت إسماعيل

★ ★ ★

عزيزى رفعت :

كان يجب أن تكون هناك .. هذا هو العدل بعينه .. أنت من جلب هذا الكابوس للعالم يوم أحرقت المومياء ، وعليك أن تكون موجودًا فى كل مرة يعود فيها .. يجب أن تنهى خطره بيديك ..

لهذا طلبت منك بإلحاح أن نلتقى .. ولو لم تأت لكان انتقامى رهيبًا ..

أرسلت لك بعض التلميحات هناك مثل دخول المنجم وموضوع المطهر والجحيم .. إلخ .. لم أستطع أن أصرح بما هو أكثر واستعملت طريقة التلميح .. لكنك استطعت حل اللغز أو استطاعته تلك الفتاة (باتريشيا) ..

لن أخبرك بنجاة أو هلاك (راى دى موسكاس) لأن هذا ليس من حقى .. فقط لو عاد لعالمكم فلسوف أخبرك لحظتها .. كما تعرف : (على الرجل أن يقوم بما على الرجل أن يقوم به) !

ضحكت كثيرًا عندما قرأت رأيك فى (باتريشيا) .. فعلاً هى باردة مريبة لكنها بريئة وعلى قدر مخيف من الذكاء .. أنت تعرف الآن أنه لم يكن لها دور فى اختفاء (سكروج) وإنما اختطفه النمل العملاق ..

لكن يجب أن تعرف أيها العزيز أن (باتريشيا) لم يكن لها وجود قط قبل هذا .. عندما أوجد فى مكان فإننى أخلق لنفسى تاريخًا حتى إن الناس يشعرون بأنهم يعرفوننى من دهور .. فجأة صار كل واحد فى البلدة يعرف الساقية (باتريشيا) ونشأتها وطباعها .. كلهم يذكرونها تلعب وهى طفلة وكلهم أحبها فى مراهقته برغم أنها لم توجد قط قبل شهرين !

لو بحثت بدقة عن العلامات الخمس فى (باترشيا) لوجدتها ، لكنى لن أذكرها طبعًا .. أنت تعرفها ..

من السهل بالنسبة لى أن أخدع البشر ، فأنا أعرف الكثير من الأشياء .. علم الحشرات العلى هذا مجرد جزء ضئيل مما أعرف ، ومن السهل أن أتكلم فيه بضع ساعات أمام مختص فيه ..

سوف نلتقى من جديد .. ربما .. هناك أشياء وأشياء يجب أن تعرفها عنى وعن ذلك الكون الغامض على الجانب الآخر من المحيط .. لكن ـ كما تقول ـ هذه قصة أخرى .

بإخلاص :

أنت تعرف من ...

ما وراء الطبيعة

روايات تحبس الأنفاس

من فرط الغموض والرعب والإثارة

روايات مصرية للجيب

أسطورة الرجال الذين لم يعودوا كذلك !

الرجال الذين لم يعودوا كذلك ..

إنهم في كل مكان للأسف هذه الأيام .. كل الرجال الذين لم يعودوا كذلك .. إلى درجة أن الأسطورة الحقيقية هي أن تحكي عن رجال ظلوا كذلك .. لكن ليس المجاز ما أعنيه .. أنا أتحدث حرفيًا عن رجال لم يعودوا كذلك ..

ربما يبدو الأمر غامضًا .. لكنك تعرف أنني سأفسر كل شيء .. بعد بضع صفحات يصير الأمر واضحًا .. ربما مملا كذلك ..



د. أحمد خالد توفيق

الرواية القادمة

أسطورة بيت الأشباح



مطابع

طباعة ونشر

المؤسسة العربية الحديثة

للطبع والنشر والتوزيع

ت : ٥٩٠٨٤٥٥ - ٦٨٤٠٥٥٤ - ٢٥٨٦١٩٧

فاكس : ٦٨٢٧٠٠٢

الثمن في مصر ٤٠٠ قرشًا

وما يعادله بالدولار الأمريكي

في سائر الدول العربية والعالم